

عايدة العزب موسى
جذور
العنف
في الغرب الإفريقي
حالتا
مالي ونيجيريا
دار البشير
للثقافة والعلوم

جذور العنف في الغرب الأفريقي

حالتا مالي ونيجيريا



جذور العنف في الغرب الأفريقي: حالتا مالي ونيجيريا

عايدة العزب موسى

الطبعة الأولى

2015

التنسيق الداخلى والإخراج: إسلام الحماقي - 01156292096

رقم الإيداع: 2015/20082

ISBN : 978 - 977 - 278 - 497 - 4



للنشر والتوزيع

ت: 01152806533

01012355714

darelbasheer@hotmail.com

darelbasheeralla@gmail.com



جذور العنف في الغرب الأفريقي

(حالتا مالي ونيجيريا)

مقدمة

نحـن لا نسـتطيع أن نفهـم الحـركات والتنظيمـات الشـعبية التـي تعمـل فـي أفريقيـا الآن إلا إذا وضعنـا فـي اعتبارنـا تاريـخ أفريقيا على مدى القرنيـن الماضيين أو مـا يزيـد علـى ذلـك، واسـتخلصنا من هـذا التاريـخ أوجـه الصراعـات والمنازعات الحـادة التـي جـرت على مـدى هـذه القـرون والتـي أخلـت بالنسـيج الاجتماعـي والثقافـي والسياسـي لتلـك الشـعوب وبالتشـكيلات الاجتماعيـة والسياسـية التـي كانـت قائمـة مـن قبل.

وعلـى كل مـن يقتـرب مـن الحاضـر الافريقـي وتشـكيلات دولـه وتنظيماته الشـعبية وحركاتـه الاجتماعية والثقافيـة أن يضع هذا التاريخ فـي اعتباره بوصف أن هـذا الأمـر هـو المقدمـة الضرورية التي يجـب وضعها في الاعتبـار لكي نفهم ما يجـري الآن.

كانـت هنـاك فـي أفريقيـا قبائـل وشـعوب ودول متجمعـة ومصنفـة علـى أسـاس مـن الحركـة الذاتيـة للتاريـخ الأفريقـي، ومبعثهـا الأوضـاع الداخليـة وتطورهـا وأساسـها عناصـر تاريخيـة تكونـت عبـر التفاعـل التاريخـي

الأفريقـي، جـرى هـذا الأمـر طبقًـا لمـا يتسـم بـه الوجـود الأفريقـي مـن توازنات ذاتيـة بيـن قـواه المتنوعـة ولكـن طبقًـا لأطمـاع القـوى الأوروبيـة الاسـتعمارية وإصرارها على السـيطرة على ما تسـتطيع السـيطرة عليه من الأراضي والشـعوب الأفريقيـة بقـوة عسـكرية متطـورة وبقسـوة عنصريـة غيـر مفهومة ممـا أدى إلى تقسـيم الوجـود الأفريقي أشـلاء أشـلاء.

وحتـى لا يسـتدرج القـارىء إلـى التاريـخ القديـم فـي موضوعـات تتعلـق بالحاضـر المعيـش يكفـي أن نشـير إلـى أهـم عناصـر هـذه الأمـور:

أولًا: أن الاسـتعمار الأوروبـي وبخاصـة الاسـتعمار الفرنسـي فـي غـرب أفريقيـا الـذي يهمنـا فـي هـذه الدراسـة كان قـد ولد حركـة مقاومة شـعبية ضده من الشـعوب والقبائـل الأفريقيـة التـي عانـت من وطأته، واسـتمرت هذه المقاومة عشـرات السـنين حتـى بعـد أن عدَّل الاسـتعمار من أسـاليبه فـي الحكم والسـيطرة عبر القرن العشـرين، كمـا أن ثمـة رصيـد معاد للاسـتعمار الغربي الأوروبـي وتاريخه في أفريقيـا منذ القرون الوسـطى ومـا كان يقـوم بـه مـن خطـف للأفارقـة واسـترقاقهم وبيعهـم فـي أسـواق النخاسـة وترحيلهـم إلـى أمريـكا عبـر المحيـط الأطلنطي عبيـدًا يباعون ويشـترون.

ثانيًـا: أن الـدول الأوروبيـة فـي اسـتعمارها لأفريقيـا وأراضيهـا كانـت عقـدت مـا يعـرف باسـم مؤتمـر برليـن 1884 – 1885 لاقتسـام القـارة

الأفريقية بين بعضهم البعض، ولم يراعوا في هذا التقسيم الوحدات الأفريقية المنبثقة من التشكل الجماعي للأفريقيين في تجمعاتهم القبلية أو اللغوية أو العرقية أو بالنسبة لما كان قائم في أفريقيا من دول وإمبراطوريات، لم يراعوا هذه التصنيفات إنما قسموا أفريقيا باعتبار أراضٍ يريدون استغلالها ومناطق نفوذ لهم، قسموها حسب قوة كل من الدول الأوروبية إزاء الدول الأوروبية الأخرى المشاركة في المؤتمر، وحسب مدى احتياجها للثروات الطبيعية الموجودة في كل سقع أفريقي، وحسب مدى نفوذها الاستعماري السابق في أي من المناطق المحتلة، فجاء معيار التقسيم بما لا يراعوا فيه التجانس القبلي أو العشائري أو اللغوي أو غيره من العوامل الأفريقية الذاتية، وتقطعت الشعوب والجماعات الأفريقية أشلاءً، وانعكس ذلك في حركات مقاومة شعبية بين الأفريقيين ضد الحكومات التي قامت وفق هذا التقسيم الذي فرضه مؤتمر برلين.

ثالثًا: أن حركات التحرر الوطني والمقاومة الوطنية الأفريقية اضطرت أن تراعي كل هذه التقسيمات التي فرضت عليها مما ترتب عليه نوع من التضارب بين تشكيلاتها وبين النظم الاجتماعية السابقة التي كانت سائدة والتي كانت تقوم حسب التكوينات العرقية واللغوية القديمة.

رابعًا: أن الاستعمار عندما وصل هذه البلاد أراد دعمًا لسيطرته السياسية بأن يفرض ثقافته على النخب الاجتماعية والثقافية في هذه البلاد وذلك من خلال المدارس والإعلام وكافة الأنشطة الرسمية التي تبنتها الحكومات الأفريقية التابعة له، وهذا ما أدى إلى أن تولدت عنه حركات مقاومة ثقافية من الثقافات التقليدية الموجودة والسائدة لدى الشعوب الأفريقية، حركات مقاومة ضد هذا الوافد الثقافي الغريب، فظهرت حركات شعبية رافضة للثقافة الغربية ومتمسكة بالثقافات الموروثة والسائدة بين الشعوب، ومن ذلك الثقافة الإسلامية ذات الجذور الشعبية التقليدية في العديد من الجماعات.

* **نخلص من ذلك:**

أنه توجد حركات شعبية دوافعها تدور حول أهداف عديدة وردود فعل متباينة. وهناك توجه معاد للسيطرة الأجنبية استخلاصًا للاستقلال الوطني مما يسمى أصحابه بالحركات الوطنية وسياستها التخلص من السيطرة الاستعمارية الأجنبية الغربية في كافة صورها وأشكالها وأساليبها.

وهناك قبائل موزعة على الحدود بين أكثر من دولة حديثة التكوين، وهذه القبائل ترفض توزيع مجالها الجغرافي الذي عرفته

مـن مئـات السـنين كمصدر للعيش والحيـاة. وترفض إقامة هذه الحـدود الحديثة التـي تقسـم القبائل أو تحد من مجـال حياتها.

وهنـاك صراعـات قبليـة قديمـة قامـت علـى أسـس التكوينـات السياسـية القديمـة ثـم جـاءت التكوينـات الحديثـة لتمكن بعض هـذه القبائل مـن الوصول إلـى الحكـم والسـيطرة علـى القبائـل الأخرى.

كل هـذه العوامـل تولـد حـركات سياسـية معارضـة ومتداخلـة، يضـاف إليها الخـلاف الدينـي الـذي يشـكل بحكـم كونـه الثقافـة السـائدة يشـكل تعبيـرًا عـن هـذه الاحتجاجـات كلهـا أو بعضهـا.

وهـذه الحـركات الاحتجاجيـة كلهـا تعبـر عن نفسـها إما بوسـائل سـلمية أو باسـتخدام العنـف. واسـتخدام الحركات السياسـية للعنف موجود ومنتشـر سـواء فـي أفريقيـا أو فـي غيرهـا مـن بلـدان العالـم أجمـع، هـو موجـود عبـر مراحـل التاريـخ كله.

ولكــن الفكــر الســائد الآن عالميًــا لمقاومــة جميــع الحــركات السياســية الشـعبية فـي بـلاد المسـلمين يريـد أن يضعهـا جميعهـا مـع بعضهـا، ويعبـر عنــه بلفــظ الإرهــاب وأدخــل معهــا حــركات الاحتجــاج الســلمية، وهكــذا صنعــت أمريــكا فــي أفغانســتان واتهمــت حركاتهــا السياســية المعتمــدة

علـى الديـن بالإرهـاب، وهكـذا صنعـت أيضًـا مـع العـراق ضـد نظـام صـدام العلمانـي، وهكـذا تصنـع كل دولـة فـي معارضـة معارضيهـا.

كمـا أن هشاشـة الـدول الأفريقيـة فـي مجـال الحفـاظ علـى السـلم والأمـن خصوصًـا فـي منطقـة المغـرب والسـاحل الأفريقـي جعلـت الجماعـات الجهادية التـي فـرت مـن الجزائر حيث نشـأت فـي الأصل لا يـرون حدودًا بيـن البلدان من المحيـط الأطلسـي إلـى البحر الأحمر. والخـوف من ترابط مسـارح العمليات بين مختلـف الجماعـات. والواقـع أن جماعـة بوكوحرام النيجيرية هـي بصدد الامتداد إلـى الكاميـرون والنيجـر وحتى أفريقيا الوسـطى.

يضـاف إلـى ذلـك أن هـذه الجماعـات المسـلحة تقيم فـي مناطـق خالية ليس للسـلطة المركزية سـيطرة تذكر عليها، وهي تعتمد على حقائق محلية هي العلاقات العائليـة والقبليـة وبهـذا تضمـن لنفسـها شـبكات تضامـن ومعلومات. وتتخـذ موقعًا فـي الاقتصـاد المحلـي من خـلال حركة القوافـل التجارية والعسـكرية، وفرض إتاوات علـى مرورهـا، والمشـاركة فـي أنشـطة التهريـب فـي مجـالات الأسـلحة والمخدرات والسـجائر والرهائن، وبذلك تمول نفسـها وتجند أتباعها من الشـباب الذي يسـتهويه المغامرات، وهم يتمتعون بموارد مالية وقدرات عسكرية تفوق غالبًا ما لدى القوات

العسكرية والأمنية التقليدية. وقد أدت حملة الإرهاب التي تقودها بوكوحرام إلى وضع حد للتجارة والتبادل التجاري عبر الحدود، وإلى وقت قريب كان كثير من الكاميرونيين يعبرون الحدود يوميًا إلى الأسواق في نيجيريا بهدف بيع منتجاتهم لكن نقاط العبور هذه أصبحت مهجورة اليوم، كما تراجعت السياحة في الشمال وأقصى الشمال بشكل حاد.

يقول أحد المحليين الأفريقيين: "إن كلامنا يكون ناقصًا لو وصفنا بوكوحرام بأنها جماعة إرهابية فقط؛ لأنها في الحقيقة جماعة حسنة التنظيم، وهي تتحكم في قرى كاملة، وتطور أيديولوجيتها للسيطرة على القلوب والعقول وتقدم إطارًا لعملية التنظيم الاجتماعي.

إن النموذج الغربي الذي تبنته الدولة القومية الحديثة أدى إلى تكوين نخبة أفريقية حاكمة تسيدت على جموع المواطنين أي أنه استبدل بنخبة أفريقية بدلًا من المستعمرين، وهذا جعل بسطاء الأحياء الشعبية والريف يحملون في وجدانهم بذور الاحتجاج والتهميش والكبت، وهي أمور يمكن لدعاة الجهاديين أن يستفيدوا منها ويستغلونها باستمالة السكان.

إن شعار الفوضى الخلاقة التي بشرت به السياسة الأمريكية نشرت الصراعات والفوضى التي تنهي مقومات الشعوب والتكوينات الاجتماعية الأفريقية وتصبح من الضعف بحيث لا تستطيع أن تقاوم بنفسها فتطلب

الحمايـة والعـون مـن الـدول الاسـتعمارية. ولعـل أكبـر مثـال علـى خلـق الفوضـى هو التدخـل التـي قـام بـه حلـف الناتو فـي ليبيا عـام 2011 دون تفكير مسـبق فـي مرحلة مـا بعـد الهجوم، كانت نتائجه مدمرة إذ انتشـر السـلاح والمقاتلون في منطقة السـاحل الأفريقـي كلـه، وزعـزع الاسـتقرار فـي مالـي، ويـؤول الأمـر إلـى حـرب أهليـة فـي ليبيا ذاتهـا. وقـد حـاول الاتحـاد الأفريقـي دون نجـاح أن يعـارض هـذه العمليـة التـي تمـت بموافقـة منظمـة الأمـم المتحدة.

إن القمـع والاسـتغلال والعنـف هـو حجـر الأسـاس فـي حلقـات الاحتجـاج والاضطرابـات والتمـرد، والكارثـة الحاليـة فـي الصحـراء الكبـرى الأفريقيـة هـي نتيجـة حتميـة للطريقـة التـي جـرى بهـا ما يسـمى بالحـرب العالمية علـى الإرهاب التـي تنظر إلـى الإرهـاب باعتبـاره مبـررًا شـرعيًا لإنشـاء جبهـة صحراويـة فـي الحـرب العالمية ضد الإرهـاب، وهـذا يؤدي إلـى أن تتحول المنطقة إلـى صراعات قبلية وقوميـة وعرقية أكثر مـن كونهـا صراعًـا أيديولوجيـا ضـد داعـش أو القاعـدة أو مـا يسـمى بالخطر الإسـلامي.. وهنـا مكمـن الخطر.

***

المبحث الأول

(مـــــالــــــي)

أولًا:

خريطة جماعات العنف والإرهاب

تعـود جماعـات التمـرد والعنـف والإرهـاب فـي المغرب الإسـلامي إلـى نهايات القـرن الماضـي، ظهـرت بداياتهـا فـي الحـرب الأهليـة فـي الجزائـر التـي امتـدت من 1991 – 2002، وصعـدت أرواح أكثـر مـن 200 ألـف ضحيـة، وكانـت صراعًـا بيـن السـلطة العلمانيـة بجبهـة التحريـر والفصائـل الإسـلامية المختلفـة، وانتهـى الصـراع بخسـارة الإسـلاميين. كان بيـن هـذه الفصائـل الإسـلامية «الجماعـة السـلفية للصلاة والجهـاد» التـي تبنـت العنـف كـرد فعـل علـى إلغـاء نتائـج الانتخابـات البرلمانيـة التـي جـرت فـي ديسـمبر 1991 وفـازت فيهـا جبهـة الإنقـاذ الاسـلامية. وفـي عـام 1992 قامـت الجماعـة بعـدة عمليـات صغيـرة مثـل خطـف سـياح وتفجيـر عربـات عسـكرية جزائريـة وعمليـات انتحاريـة متباعـدة، ولكـن أحدثـت هـذه العمليـات وضعًـا متفجـرًا فـي الجزائـر، وفـي مايـو 1994 تـم لقـاء بيـن الجماعـات الإسـلامية علـى اختـلاف توجهاتهـا وانتماءاتهـا ونتـج عـن هـذا الاجتمـاع وحـدة تنظيميـة

جديـدة بقيـادة الجماعـة السـلفية التـي أصبحت تعـرف فيما بعد باسـم أكيم AQIM أي تنظيـم القاعـدة في المغرب الإسـلامي.

جـاء الظهـور الفعلـي للجماعـة علـى السـاحة الجزائريـة علـى إثـر أزمـة الرهائـن الأجانـب فـي أبريـل عـام 2003 عندمـا أعلنـت مصـادر مـن الجيـش الجزائـري عـن اختطـاف سـبع مجموعـات مـن السـياح الأوروبيين يبلـغ عددهم 32، وأن الخاطفيـن هـم مـن أعضـاء المنظمـة السـلفية للصـلاة والجهـاد GSPC وهـم مجموعـة ميليشـيات إسـلامية ترتبـط بتنظيـم القاعـدة. وفـي مايـو أطلـق سـراح 17 رهينـة بعد تبـادل إطلاق النار بيـن الجيش والخاطفين. وفي أغسـطس أطلـق سـراح الرهائن الباقين الخمسـة عشـر بعـد أن أعلنت السـلطات الجزائرية أنهـا مسـتعدة للسـماح لجميـع الخاطفيـن بمغـادرة البـلاد بحرية بشـرط أن يتم إطـلاق الرهائـن، وفتحـت لهـم ممـرًا آمنًـا لمغـادرة البـلاد مـن الجنـوب للوصول إلـى مالـي. وعلـى مدار عدة سـنوات مـن تمرد دموي أسـفر عن مقتـل مائة ألف شـخصًا، وبالتحديـد عـام 2007 أعلنـت المنظمـة السـلفية للصـلاة والجهـاد أنهـا غيـرت اسـمها لتصبـح تنظيـم القاعـدة فـي بـلاد المغـرب الإسـلامي AQIM وأنهـا تسـعى لإسـقاط الحكومـة الجزائريـة وإقامـة دولة إسـلامية.

وكانت الولايات المتحدة أبدت قلقها من أن يمتد نفوذ هذا النشاط الإسلامي عبر الصحراء؛ فقامت بمبادرة عرفت تعرف باسم "مبادرة الجماعة الساحلية PSI" التي صارت في عام 2005 باسم "المبادرة ضد الإرهاب عبر الساحل". وكانت المبادرة عبارة عن تجنيد قوات مسلحة من سبع دول صحراوية وتدريبهم على القتال للعمل في هذا التكوين العسكرية، ولتنفيذ مشروع الساحل هذا رصدت الولايات المتحدة 500 مليون دولار على مدى خمس سنوات للمعدات العسكرية في الأساس، ويمكن زيادتها إذا طلبت نيجيريا وغانا بزيادتها، وحتى عام 2006 عندما تشكل هذا التكوين العسكري لم تكن "أكيم" قد تكونت بعد.

لم يكن هدف الولايات المتحدة من مبادرة الساحل محاربة الإسلاميين في مجال المعارك القتالية فحسب بل كانت ترغب في محاربتهم بالنسبة لعقائدهم المتطرفة؛ لذلك حولت الخمسمائة مليون دولار الخاص بالمهمات العسكرية من وزارة الدفاع الأمريكية إلى وزارة الخارجية الأمريكية، وأرسلت 300 من القوات الخاصة بالولايات المتحدة كخبراء ليدربوا العسكريين في مالي في ثلاثة من قواعدهم هناك.

وهذه المبادرة الساحلية تؤدي عملها الآن من خلال "الأفريكوم". والأفريكوم هي القيادة الأمريكية في أفريقيا المسئولة عن نشاط العسكرية

الأمريكيـة ودعـم العلاقـات العسـكرية فـي أفريقيـا ويناط بهـا العمليات العسـكرية فـي أفريقيـا لمواجهـة الخـط الأمني الـذي تشـكله الشـبكات الإرهابية، أسسـت عام 2007، وبدأ نشـاطها رسـميًا عـام 2008.

تنظيم القاعدة

إن تنظيـم القاعـدة فـي المغـرب الإسـلامي ولـد مـن رحـم الجماعـة السـلفية للصـلاة والجهـاد. وفـي عام 2006 أعلن انضمامـه إلى تنظيم القاعدة الـذي كان يقوده أسـامة بـن لادن قبـل أن يسـمى نفسـه فـي العـام التالي رسـميًا اسـم "تنظيـم القاعدة فـي المغـرب الإسـلامي"، وانضمت إليـه عناصر مـن موريتانيا والمغـرب وتونس، وامتد نفـوذه إلـى جنـوب الصحـراء. وأعلـن أن هدفـه هـو "تحريـر المغـرب الإسـلامي مـن الوجـود الغربـي الفرنسـي والأمريكـي تحديـدًا ومـن الأنظمـة الموالية لـه، وحمايـة المنطقـة مـن الأطمـاع الخارجيـة وإقامـة دولـة كبـرى تحكم بالشـريعة الإسـلامية.

ويتركـز التنظيـم فـي الجزائـر فـي شـرق البـلاد وخاصـة فـي مناطـق القبائـل، ويمتـد نفـوذه إلـى جنوب الصحـراء فـي موريتانيا ومالي وأجـزاء من تونـس والنيجر. وهـو يسـعى إلـى توسـيع جبهـة القتـال لأقصـى مـدى ممكـن. ووضـع مـا سـماه بالاسـتراتيجيات المشـتركة للعمليـات الجهاديـة مـع العمـل علـى تجنيد أعضـاء جدد مـن الشـباب المتعاطفيـن مـع التيـارات الإسـلامية.

يوصف الهيكل التنظيمي للقاعدة في بلاد المغرب الإسلامي بالتعقيد، ويتكون التنظيم من: أمير التنظيم، مجلس الأعيان، رؤساء اللجان والهيئات الذين يشكلون ما يعرف بمجلس شورى التنظيم. ويتسم الهيكل التنظيمي بالشمول والتكامل من خلال المهمات والواجبات التي تتولاها الهيئات والأقسام، ومن خلال سعيها نحو إقامة عمل مؤسسي يشبه إلى حد كبير مؤسسات الدولة. وهو يضع على رأس أولوياته الانقلاب على الحكم والسيطرة عليه من أجل إقامة الدولة الإسلامية.

يشترط التنظيم في العضو أن يكون مسلمًا سليم العقل والأعضاء بما لا يعيقه عن الجهاد، وألا يلتزم بالعمل مع أي تنظيم آخر، فضلًا عن البيعة التي يعطيها لأمير التنظيم، والبيعة هي الإسلام والبلوغ والعقل والذكورة والحرية والعدالة وسلامة العقيدة والمنهج والعلم الشرعي (وهذا الشرط تعتبره الجماعة من شروط الكمال وليس من شروط الوجوب).

وجاء في بيان البيعة، توسيع قاعدة العمل لتشمل سائر أقطار المغرب الإسلامي الذي يضم تونس والجزائر وليبيا والمغرب وموريتانيا بعد أن كانت تقتصر في عملها على الجزائر. وهكذا تحول تنظيم القاعدة من تنظيم قطري إلى تنظيم إقليمي، واستطاع من خلال ذلك استقطاب عدد كبير من أتباع السلفية الجهادية التي كانت تعمل بشكل منفرد تحت

مسـميات مختلفـة واسـتراتيجيات متنوعـة. وقـد أظهـر تنظيـم القاعـدة فـي بـلاد المغـرب الإسـلامي قـدرة فنيـة وتقنيـة عاليـة فـي أنشـطته وعملياتـه.

تصـف الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والاتحـاد الأوروبي تنظيـم القاعدة في بـلاد المغـرب الإسـلامي بأنـه حركـة إرهابيـة، وتقـول الجزائـر إن سـقوط معمـر القذافـي فـي ليبيـا فـي سـبتمبر عـام 2011 سـبب فراغًا أمنيًـا سـمح للقاعدة في بـلاد المغـرب الإسـلامي بتقوية نفسـها.

والحقيقـة أن انهيـار نظـام العقيـد الليبـي معمر القذافـي وعـودة آلاف المقاتلين الطـوارق أهالـي الصحـراء الكبـرى المدججين بالسـلاح الذين كانوا يعملـون في كتائب القذافـي عودتهـم إلـى موطنهـم الأصلي فـي إقليم أزواد شـكل تحولًا فـي منطقة أزواد شـمال مالـي التـي لـم تعـرف الاسـتقرار بسـبب النزعـة الانفصاليـة لسـكانها والفوضـى التـي تضـرب أطنابهـا هناك منذ عشـرات السـنين، وسـاهم فـي ذلك تجاهـل حكوماتها التـي لـم تلـق بـالًا للتحذيـرات والتقاريـر التـي كانـت تتحـدث عـن اسـتعداد الطوارق لاسـتئناف عصيانهم.

* * *

إلــى جانــب تنظيــم القاعــدة فــي بــلاد المغــرب الإســلامي ظهــرت حــركات أخــرى: حركـة أنصـار الديـن التـي تأسسـت فـي نوفمبـر 2011

من قبيل زعيم الطوارق إياد أخ غالي الذي يتمتع بنفوذ كبير، وحركة التوحيد السلفية العربية، ويقف تنظيم القاعدة فارضًا نفسه وصيا عليهم وعلى المشروع السلفي الجهادي في المنطقة برمتها.

إن المتمردين في المغرب الإسلامي متنوعون وأغلبهم من الطوارق. والطوارق هم بدو الصحراء يعيشون على الحدود الجنوبية في دول شمال أفريقيا، وهم معروفون بالرجال الزرق نسبة إلى ملابسهم. وعلى مدى عقود عاشوا يواجهون التحدي على استقلالهم وأساليب عيشهم، وعانوا من المظالم من الدول الاستعمارية ثم من الدول الوطنية التي عملت على دمجهم في هيكل الدولة مع طمس نظمهم وهوياتهم، وكذلك تحديد الحدود الدولية التي يعيشون فيها رغم تنقلهم. ويضاف إلى ذلك سوء الأحوال في الصحراء وتدهورها على مدى قرن كامل بسبب فترات من الجفاف وتغير أساليب الرعي وتنقله؛ لذلك فهم لهم تاريخ طويل في الصراع ضد الدولة، فمنذ أن حصلت مالي على الاستقلال عام 1960 كان أول ظهور لتمردهم عام 1962 في منطقة ادرار عندما عارضوا محاولة وضعهم تحت سيطرة الدولة المستقلة الناشئة، وأعلنوا إصرارهم على حماية أسلوبهم في الحياة.

إن منطقة المغرب الإسلامي تعج بتنظيمات العنف التي يصعب

حصرهـا، فـكل يـوم نسـمع عـن فصيل جديـد مثـل أنصار الشـريعة الذي تأسـس فـي ليبيـا فـي أبريـل 2012 بعـد الثـورة الليبية بشـهور وطالب بتحكيم الشـريعة الإسـلامية، وفـي تونـس تأسـس تنظيم الشـريعة عـام 2012 وطالب أيضًا بأسـلمة الإعـلام والتعليـم والسـياحة والقطاعـات التجاريـة وإنشـاء نقابات إسـلامية. على أنـه يمكـن حصـر أهـم الحـركات الجهاديـة المتحالفـة مـع تنظيـم القاعـدة فـي: جماعـة أنصـار الديـن، وجماعـة التوحيـد والجهـاد فـي غـرب أفريقيـا، وجماعـة أنصـار الشـريعة، وحركـة أبنـاء الصحـراء للعدالـة الإسـلامية (السـكينة)، والأخيـر هـو تنظيـم انفصالـي فـي الباديـة كانت أهدافـه اجتماعيـة تطالب بحقـوق أبناء الجنـوب ثـم تطـورت إلـى المطالبـة بانفصـال جنـوب الصحـراء عـن الجزائـر ثـم تحولـت إلـى جماعـة تسـتخدم العنـف وقـد تأسسـت فـي أكتوبـر 2007 وأجرى النظـام الجزائـري مفاوضـات مع الحركة أدت لتوقيف عملهـا، ولكن تلمض النظام الجزائري من الاتفاق المعقود بينهما فأعلنت الحركة العودة إلى العمل المسـلح، وهـرب عـدد مـن قيادتهـا إلى شـمال مالـي وأعلنـوا تعاونهم مـع تنظيـم القاعدة مـن أجـل اسـتعادة حقهـم فـي إقامـة العدالـة الإسـلامية فـي الجنـوب الجزائـري وفـي الجزائـر ككل. وأكـدت الحركـة أن لجوءهـا إلـى خـارج البـلاد كان بهـدف

هيكلة نفسها، وتبنت مؤخرًا أنها نقلت مجال نشاطها إلى شمال النيجر وغرب ليبيا وصولًا إلى الحدود الجنوبية الشرقية للجزائر وهي منطقة تشهد فراغًا أمنيًا.

الحركات المسلحة غير الجهادية: تتمثل في الحركة الوطنية لتحرير أزواد MNLA وهي حركة علمانية عسكرية سياسية أسسها الطوارق في إقليم أزواد شمال مالي، ويرجع تسمية أزواد إلى نهر جاف يقع غرب النيجر وشمال شرقي مالي وجنوب الجزائر ومعناه "أرض الترحال"، وهي تعد أول الحركات الوطنية العلمانية التي اتخذت اسمها من اسم الإقليم الذي نشأت فيه. وتتشكل الحركة من ليبراليين ومستقلين وآخرين لا يعرف لهم انتماء أيديولوجي، وتدعي أنها تمثل السواد الأعظم من مقاتلي الطوارق. وقد أعلنت عن تأسيسها في أول نوفمبر 2010 في مدينة تمبكتو، وجاء في بيان التأسيس:

"نحن أبناء الشعب الأزوادى المؤتمرين في مدينة تمبكتو في الفترة ما بين 31 أكتوبر إلى أول نوفمبر. وقد استعرضنا مجمل التحديات التي يواجهها إقليم أزواد منذ أكثر من خمسين عامًا والمأساة التي يتعرض لها الشعب الأزوادي، والمرحلة الحرجة التي يمر بها اليوم على كافة المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما يعانيه

مـن تهميـش وإقصـاء وحصـار وتهجيـر واسـتباحة للتـراب الأزوادي، ويحـدث كل هــذا بمباركــة ودعــم مــن الدولــة الماليــة، وفــي نهــج مســتمر ضــد الأزواديـيـن منــذ 50 عامًــا، وكمــا يــرى العالــم فقــد ســمحت مالــي وتعاونــت مـع مجموعـة مرفوضـة أزواديًـا وعالميًـا وسـهلت لهـا ممارسـة أنشـطتها فـي إقليـم أزواد بهـدف التعتيـم علـى الجرائـم التـي ترتكـب فـي حـق الطـوارق والأزواد عمومًــا تحــت مســمى مكافحــة الإرهــاب حتــى أصبــح أزواد منطقــة صـراع النفـوذ بيـن الـدول والجماعـات المتطرفـة وبـات الأزواديـون بيـن مطرقة الجيـش المالـي وسـندان هـذه الجماعـة الموصومـة بالإرهـاب، وأضحـى أزواد عرضـة لتدخـلات إقليميـة ودوليـة كل حسـب مصالحـه وأجندتـه الخاصـة، ولـم يعـد للأزواديـيـن دور سـوى دور المتفـرج المغلـوب علـى أمـره، وهـم ينظـرون إلــى أرضهــم تشــوه وثرواتهــم تنهــب مــن قبــل الحكومــة الماليــة والشــركات العالميــة المتعاقــدة معــه دون أن يعرفــوا شــيئًا عــن طبيعــة هــذه العقــود فــي ظــل غيــاب كلــي لأي تمثيــل حقيقــي للأزواديـيـن يعكــس موقفهــم ممــا يجـرى علـى أرضهـم. ووعيًـا منـا بمعانـاة شـعبنا المسـتمرة منـذ عقـود مـن الزمــن واســتجابة للضميــر الحــي لأبنــاء الأمــة الغيوريــن ودفاعًــا عــن الهويــة الوطنيــة الأزواديــة المهــددة بالضيــاع واســتمرارًا لنضــال الآبــاء والأجــداد

والتزامًـا بالقيـم الإنسـانية العالميـة، واعتبـارًا كذلـك للمسـتجدات الخطـرة التـي ظهـرت علـى السـاحة الأزواديـة فـي السـنوات الأخيـرة، فإننـا نعلـن اليـوم عـن تأسـيس وميـلاد الحركـة الوطنيـة الأزواديـة وهـي تنظيـم سياسـي أزوادي يمثـل النهـج السـلمي للوصـول إلـى جميـع أبنـاء أزواد بمختلـف انتماءاتهـم الاجتماعيـة ومناطقهـم الجغرافيـة للالتحـاق بهـا مشـددة علـى أهميـة وحـدة الصـف والكلمـة والموقـف السياسـي وبـذل كل الجهـود فـي سـبيل تحقيـق الأهـداف الوطنيـة المنشـودة كل حسـب موقعـه ومجالـه. إن الحركـة الوطنيـة الأزواديـة تعلـن أنهـا تتبنـى نهـج العمـل السياسـي والقانونـي لاسـتعادة كل الحقـوق، وتنبـذ العنـف وتديـن الإرهـاب بـكل أشـكاله سـواء كان إرهـاب الدولة أو إرهـاب الجماعـات والأفـراد مـع حرصهـا علـى ضـرورة التمييـز بيـن الإرهـاب والمقاومـة المشـروعة، وهـي تطالـب دولـة مالـي بالاعتـراف الكامـل بحقـوق الشـعب الأزوادي التاريخيـة والاسـتجابة الجـادة لهـا لحـل قضيـة أزواد سـلميًا، وهـي تمـد يـد الأخـوة والصداقـة والتعـاون لـكل الـدول الشـقيقة والصديقـة. كمـا ترحـب وتتطلـع إلـى علاقـات التعـاون الفعـال مـع كل دول وشـعوب العالـم وجميـع الهيئـات الدوليـة الحكوميـة وغيـر الحكوميـة. وأن الحكومـة الوطنيـة الأزواديـة تنبـه كل الهيئـات والشـركات المتعاقـدة مـع دولـة مالـي

فـي مواضيـع تخـص إقليـم أزواد إلـى ضـرورة مراجعـة هـذه العقـود وإعـادة النظـر فيهـا باعتبارهـا وقعـت بـدون الموافقـة المسـبقة لأصحـاب الأرض كمـا تنـص القوانيـن الدولية.توقيـع: الحركـة الوطنيـة الأزواديـة

وقـد تشـكلت بعدهـا عدة حـركات تحمل اسـم أزواد وهي: الحركـة العربية لأزواد، والمجلـس الأعلـى لوحـدة أزواد، وحركة الكوندوكوى.

الحـركات الجهاديـة الإسـلامية: أكبرهـا حركـة أنصـار الديـن، وحركـة الجهاد والتوحيـد. وحركـة أنصـار الديـن تتركز في شـمال مالـي وهي تتعـاون مع جماعة أهـل السـنة والجماعـة، وجماعـة الدعـوة والجهـاد المعروفـة إعلاميًـا بحركـة بوكوحـرام فـي شـمال نيجيريـا، وهـي حركـة شـعبية جهاديـة سـلفية أسسـها الزعيـم إيـاد أخ غالـي وهـو مـن أبنـاء أسـر القيـادات التاريخيـة الطوارقيـة، قـاد التمـرد ضـد الحكومـة الماليـة فـي بدايـة التسـعينيات من القـرن الماضـي. وكان قائـدًا قوميًـا أقـرب إلـى الفكـر الوطنـي فيـه إلـى الفكـر الإسـلامي، وعمـل قنصلًا لجمهوريـة مالـي فـي جـدة، وفـي سـنواته الأخيـرة عرف بتوجهـه الدينـي وانتهى بـه إلـى اعتنـاق الفكـر السـلفي الجهـادي، وتحولـت رؤيتـه للعمـل المسـلح في أزواد مـن عمـل نضالـي تحـرري إلـى عمـل جهـادي دينـي، ومـع سـقوط معمـر القذافـي عـاد إيـاد أخ غالـي إلـى أزواد واتخـذ مـن الجبـال مقـرًا لـه وبـدأ فـي

تجميع المقاتلين الطوارق تحت عيون تنظيم القاعدة وبمباركة منها، وأسس تنظيمه الجديد حركة أنصار الدين، واستغل مكانته الاجتماعية وتوجهه السلفي لقطف ثمار عشرات من عمل عناصر القاعدة في المنطقة الذين زرعوا بذور الدعوة الجهادية السلفية.

والحقيقة أن العلاقة التي تربط القاعدة وحركة أنصار الدين يشوبها الغموض، ولكن عقب اندلاع تمرد الطوارق في يناير 2012 بقيادة الحركة الوطنية لتحرير أزواد (العلمانية) انضمت أعداد كبيرة من صفوفها من المقاتلين إلى حركة أنصار الدين بما فيهم مقاتلون من تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، كما حصلت أنصار الدين على السلاح من مصادر متنوعة. وفي يناير 2012 تأسست جماعة جديدة هي حركة أزواد الإسلامية.

حركة الجهاد والتوحيد: هي الحركة الأخرى الفاعلة في المغرب الإسلامي. وتوصف حركة الجهاد والتوحيد في غرب أفريقيا بأنها أخطر الجماعات الإرهابية المسلحة والأكثر إثارة للرعب في شمال مالي، وهي نسخة عربية من حركة أنصار الدين الطوارقية، أظهرت انشقاق قادتها عن تنظيم القاعدة بعد رفض القاعدة طلبهم تأسيس كتائب خاصة بالمقاتلين من أبناء القبائل العربية في أزواد، وأعلنت انفصالها عن القاعدة لكي تنشر فكر الجهاد في كل غرب أفريقيا بدلاً

مـن أن تكتفـي بمنطقـة المغـرب الإسـلامي أو منطقـة السـاحل وتتشـكل فـي الأسـاس مـن عـرب موريتانييـن وماليين. وقـد انضـم إلـى الحركـة بعـد تأسيسـها عشـرات المقاتليـن مـن أبنـاء القبائـل العربيـة فـي شـمال مالـي لتصبـح واجهـة للتيـار السـلفي الجهـادي فـي المجموعـة العربية بـأزواد تمامًا كما شـكلت حركة أنصـار الديـن الواجهـة السـلفية الجهاديـة داخـل المجموعـات الطوارقيـة.

كان أول إعـلان عـن وجـود الجهـاد والتوحيـد فـى أكتوبـر 2011 خـلال عمليـة اختطـاف ثلاثـة مـن عمـال الإغاثة مـن أسـبانيا وإيطاليا فـي تندوف فـي الجزائـر، ووصفـت الجماعـة نفسـها بأنهـا فصيـل منشـق عـن تنظيـم القاعـدة فـي بـلاد المغـرب الإسـلامي منتقـدة ابتعـاد القاعـدة عـن التفاني فـي قضيـة الجهـاد مسـتبدلة إيـاه بالعنـف وبالنشـاط الإرهابـي. ويقـال أن نضـال حركـة التوحيـد والجهـاد فـي غـرب أفريقيـا يمكـن تسـميته "انفصال تكتيكـي" حيـث سـمح تنظيم القاعدة بحصول الانشـقاق بين صفوفه سـعيًا وراء فـرص جديـدة للتمويـل والتجنيـد. وظهـر أن حركـة التوحيـد والجهـاد وحركـة أنصـار الديـن وتنظيـم القاعـدة يتقاسـمون فيمـا بينهـم المناطـق الثـلاث فـي شـمال مالي.

وقد كشف تقرير أمريكي صادر عن معهد للدراسات الأمنية قريب من وزارة الدفاع الأمريكية أن الحدود الجزائرية مع جيرانها أضحت بؤرة إرهاب وذلك لكونها معقلًا لحركتي المرابطين (يقصد بهما حركة أنصار الدين وحركة الجهاد والتوحيد في غرب أفريقيا)، وهاتان الحركتان تتخذان من الشريط الحدودي في الدول المجاورة للجزائر منطلقًا لعملياتها الإرهابية. وأوضح التقرير الأمني أن حركة المرابطين تتخذ من جنوب ليبيا في المثلث الحدودى مع الجزائر والنيجر معقلًا لمعسكراتها التدريبية. وكشف التقرير أيضًا أن الحركات أصبحت أكثر خطورة منذ ابتعادها عن القاعدة الأم مبرزًا وجود جهاديين أجانب من مختلف أنحاء العالم منهم أوربيون وفرنسيون على وجه الخصوص في التنظيمات المسلحة. وأشار التقرير إلى عودة أعضاء جماعات العنف والجماعات الإرهابية إلى بلدانهم مزوّدين بمهارات قتالية مما يثير المخاوف خاصة أن الشريحة الاجتماعية التي تلتحق بالجماعات الإرهابية أكثر تعلمًا وازدهارًا من سابقاتها، وأن أعضاءها لم يأتوا من الأحياء المهمشة بل من الشرائح العليا في المجتمع. وأن الصورة النمطية للانتحاريين أنهم فقراء ومحدودو

الـذكاء، ومحاولـة حصرهـم فـي هـذه الحالـة الضيقة. أنهـم يصنعـون القنابل الصغيـرة غيـر الفعالـة - لن يسـاعد في القضـاء على الإرهـاب ومواجهته. وأن الجماعـات الإرهابيـة عانـت مـن ملاحقـة الأجهـزة الأمنيـة والمخابراتيـة التي تنسـق مـع الولايـات المتحـدة أثبتت أنها قـادرة علـى البقاء والاسـتمرار. وأن الإرهـاب الهـاوي الـذي اعتمدت عليـه بعض الجماعـات الإرهابية قـد يتحول مـع العنـف السـلطوي المحلـي والدولـي إلى إرهـاب احترافي.

ثـم ظهـرت أخيرًا جماعة "فجر ليبيا" وهى تحالف مجموعة ميليشـيات إسـلامية فـي ليبيـا تضم ميليشـيات "درع ليبيا الوسـطى" و"غرفة ثـوار ليبيا" فـي طرابلـس وميليشـيات تنحدر من مناطـق مصراتة إضافة إلى ميليشـيات مـن غريـان والزاويـة وصيراتـة، بـدأت هجومًـا فـي 13 يوليـو 2014 بهـدف الاسـتيلاء علـى مطـار طرابلـس الدولي وعدد من المعسـكرات فـي المناطق المجـاورة لـه الـذي تقـوم قـوات تابعة للجيـش الليبـي بإدارتـه وتأمينه منذ سـقوط النظام الليبـي عام 2011.

مـع اشـتداد معركـة المطـار وقبـل انعقـاد مجلـس النـواب الليبـي المنتخـب فـي مدينـة طبـرق والـذي تفـوق فيـه التيـار المدنـي علـى

الإسلاميين. تحركت ميليشيات من مدينة مصراتة وبدأت عملية عسكرية أطلقوا عليها اسم "فجر ليبيا" بهدف السيطرة على مطار طرابلس. ويطغى على أغلب تلك الميليشيات توجه إسلامي، ومن أهمها غرفة "ثوار ليبيا" وميليشيات "درع ليبيا الوسطى" و"معسكر 27" وميليشيات من غريان وصبراتة ومن معتيقة والزاوية بالإضافة إلى ميليشيات تسمى "الحرس الوطني".

وقد حازت ميليشيات فجر ليبيا على تأييد من بعض أعضاء المؤتمر الوطني العام المنتهية صلاحيته، وكذلك تأييد في بعض المناطق خصوصًا في مصراتة في غرب ليبيا، إلا أن هذا الهجوم رفض من قبل العديد من المواطنين.

ويمكن تلخيص الجماعات المتشددة في المغرب الإسلامي والشمال الأفريقي على النحو التالي:

1. جنود الخلافة في الجزائر، وهي جماعة حديثة منشقة عن القاعدة.
2. أنصار الشريعة في تونس.
3. القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي، يعود تاريخها إلى الأزمة

الجزائرية في التسعينيات من القرن الماضي.

4. حركة أنصار الدين، يتبع تنظيم القاعدة وينشط في شمال مالي.

5. حركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا.

6. الموقعـون بالدمـاء تأسـس عـام 2012 يقودهـا مختـار بن مختـار وهو قيـادي سـابق فـي تنظيـم القاعـدة بالمغرب الإسـلامي ومحـارب قديم في أفغانسـتان.

7. أنصار بيت المقدس تنشط في سيناء.

8. أنصـار الشـريعة فـي ليبيا تسـيطر على أجـزاء كبيرة في بنغـازي ودرنة شـرق ليبيـا، وجماعـة فجـر ليبيـا فـي طرابلـس بغـرب ليبيا.

***

ثانيًا: مالي وطوارق أزواد

مــــــالــــــى

مالي دولة قارية في غرب أفريقيا، تحدها الجزائر شمالًا والنيجر شرقًا وبوركينا فاسو وساحل العاج (كوت ديفوار) في الجنوب وغينيا من الغرب والجنوب والسنغال وموريتانيا من الغرب، عاصمتها باماكو، وهي بلد استراتيجي يربط شمال ووسط وغرب أفريقيا بالقارة الأفريقية، ومعظم أهلها مسلمون غير متعلمين بسبب سياسة الإفقار والتجهيل القائمة هناك بغرض الابقاء على السيطرة عليها بعد احتلال من فرنسا دام عدة عقود.

كانت مالي جزءًا من ثلاث إمبراطوريات أفريقية سيطرت على التجارة عبر الصحراء هي مملكة غانا القديمة ومالي والصنغى. نشأت مملكة مالي التي تعرف ببلاد التكرور بين برنو شرقا والمحيط الأطلسي غربًا وجبال البربر شمالًا، وكانت أقوى ممالك السودان الغربي وأقدمها. والاسم القديم التي شملتها المنطقة هو صحراء أزواد، وفي عام 1325

انضمـت صحـراء أزواد إلـى مملكـة مالـي الإسـلامية واحتفظـت بحكـم ذاتـي، وفـي عـام 1433 تخلـت مملكـة مالـي الإسـلامية عـن سـيادتها علـى صحـراء أزواد واحتفظـت بحكـم ذاتـي، وفـي عام 1598 احتـل المغاربـة منطقـة أزواد، وفي عام 1893 وصـل الاسـتعمار الفرنسـي إلـى المنطقـة التـي شـهدت مقاومـة كبيـرة مـن الطـوارق فـي مالـي والجزائـر.

امتـدت مملكـة مالـي فـي العصر الوسـيط مـن سـاحل المحيط الأطلسـي غربًا إلـى منحنـى نهـر النيجـر شـرقًا، ومـن حقـول الذهـب فـي غينيـا جنوبًـا إلـى محطة القوافـل التجاريـة عبـر الصحـراء في الشـمال. وفـي أواخـر القـرن 19 وبالتحديد عام 1893 دخلـت مالـي تحـت الحكـم الفرنسـي وأصبحت مسـتعمرة فرنسـية. وفي عام 1904 سـميت "السـودان الفرنسـي"، وفـي عـام 1920 أصبحـت جـزءًا مـن الاتحـاد الفرنسـي، واعتبـرت الإدارة الفرنسـية مالـي منطقـة غيـر مؤهلـة لميلاد دولـة حديثة وقسـمت أهلهـا الطـوارق بين أربـع دول الجزائر ومالـي والنيجر وبوركينا فاسـو، ولم يـدرج ضمـن المخطـط الفرنسـي القسـم الأخيـر مـن بـلاد الطـوارق سـلطنة "أزجر" الواقـع فـي الجنـوب الليبـي إذ كان تابعًـا فـي الأصـل لليبيا.

فـي ينايـر 1958 حصلـت مالـي علـى الحكـم الذاتـي ضمـن المجموعـة الفرنسـية ودخلـت مـع السـنغال فـي اتحـاد عـرف باسـم الاتحـاد السـوداني

ما لبث أن انحل بعد عام في أعقاب انسحاب السنغال فتغير اسمها إلى الاسم القديم لها "مالي". وفي عام 1960 حصلت مالي على استقلالها، ومنذ ذلك التاريخ والطوارق في حالة تمرد ضد الحكومات المالية.

تعتبر مالي أكبر دولة في غرب أفريقيا غالبيتها مسلمون وهم يشكلون 90 % من سكانها. ومن بدايات القرن الثالث عشر الميلاد زحف إليها التجار المسلمون والبربر والطوارق ونشروا فيها الإسلام، كما انتشر الإسلام في المنطقة من قبل الطرق الصوفية، وربط الإسلام بين سكان منطقة السافانا في غرب أفريقيا ومدنها كانوا وجاو وتمبكتو، وسرعان ما أصبحت مالي مركزًا للتعليم الإسلامي. ومن أشهر ملوكها منسي موسى 1316 - 1337 شهدت البلاد في عهده توسعًا كبيرًا ومد نفوذه إلى مدن تمبكتو وغاو جنيه وأنشأ المساجد في جميع أنحاء مالي. وفي عهده أصبحت تمبكتو واحدة من المراكز الثقافية الكبرى في أفريقيا والعالم في العصر الوسيط. وقد استوعب الإسلام في مالي بفضل حركات الطرق الصوفية، كما بقيت المعتقدات التقليدية الوثنية فيها تمارس بحرية. ويشكل سكانها أربع مجموعات عرقية كبيرة هي الطوارق والعرب والفلاتا والسونغاي. والطوارق لا يستوعبون في مالي وحدها بل هم الشعب الذي يستوطن الصحراء الكبرى في

جنـوب الجزائـر وشـمال مالـي وشـمال النيجـر مـن الشـرق وجنـوب غـرب ليبيـا وشـمال بوركينـا فاسـو، باختصـار هـم بـدو الصحـراء يعيشـون علـى الحـدود الجنوبيـة لـدول شـمال أفريقيـا، وهـم يعرفـون بالرجـال الـزرق فـي الصحـراء نسـبة إلـى ملابسـهم، وعاشـوا طـوال تاريخهم يواجهـون التحدي على اسـتقلالهم وأسـاليب عيشـهم.

الطــوارق

عـاش الطـوارق طـوال حياتهـم فـي مظالـم أتـت عليهـم مـن الـدول الاسـتعمارية ثـم مـن الـدول الوطنيـة التـي عملـت علـى دمجهم فـي هيكل الدولـة وتقسـيمهم الحـدود الدوليـة التـي يعيشـون فيهـا، يضـاف إلـى ذلـك سـوء الأحـوال فـي الصحـراء وتدهورهـا علـى مدى قـرن كامل بسـبب فترات الجفـاف وتغيـر أسـاليب الرعـي وتنقلـه. لـم يقـم أي اتحـاد قوي بيـن قبائل الطـوارق، وكان المألـوف قيـام غـزوات بيـن القبائـل الطوارقيـة نفسـها، إلا أنـه لـم تسـتطع أي قـوة خارجيـة مـن السـيطرة على مواطـن الطـوارق قبل الاسـتعمار الفرنسـي. وقـد أظهـرت قبائلهـم قـدرات تنظيميـة ومهـارات عسـكرية فائقة في إلحاق الهزيمة بالحملات العسـكرية الفرنسية التي غزت أراضيهـم فـي القـرن الــ 19 ولـم تتمكن فرنسـا مـن هزيمتهم عسـكريًا حتى

عشرينيات القرن الماضي حين سيطرت على مناطق الصحراء. ومنذ استقلال الدول التي يتواجد فيها الطوارق خصوصًا دولتا مالي والنيجر وهو يقومون بثورات عديدة بسبب الظلم والتهميش الذي عانوا فيه.

لذلك كان للطوارق تاريخ طويل في الصراع ضد الدولة بدأ منذ عام 1962 في جبال أدرار عندما عارضوا وضعهم تحت السيطرة في الدولة المستقلة الناشئة. ويسجل التاريخ الحديث لهم أربع ثورات كبرى على مدى الخمسين سنة الماضية هي ثورة كيدال عام 1962، ثورة عام 1990، ثورة عام 2006، ثورة عام 2012 والأخيرة قادتها الحركة الوطنية لتحرير أزواد وأعلنت استقلال دولة أزواد في أبريل 2012.

ثورات الطوارق

الثورة الأولى ثورة كيدال عام 1962: وهي أول ثورة للطوارق في منطقة أزواد استمرت نحو عامين حتى 1964 وتسمى "بالفلاقة". تعود أسباب الثورة إلى عهد رئيس مالي "موديبوكيتا" الذي حاول حينذاك أن يقيم الاشتراكية في مالي، فأرسل جنوده إلى شمال البلاد لإحصاء مواشي سكانها من الطوارق والعرب فأذاع أكذوبة حقن المواشي

تجنبًا لأمراضها واندفع البدو طواعية بمواشيهم إلى التجمعات التي حددتها الحكومة المالية، وأخذ جنود الحكومة يختمون المواشي بختم الدولة على اعتبار أنها أصبحت ملكًا للدولة، وكان الجنود في تجوالهم ينهبون الخيام. وعندما اكتشف سكان الصحراء من الطوارق والعرب نوايا الحكومة قاموا بثورتهم الأولى.

انطلقت الثورة بعمليات صغيرة تعترض طريق دوريات جنود مالي وتستولي على سلاحهم وتمنعهم من التوغل داخل مخيمات الطوارق والعرب، غير أن الجيش المالي هاجم المخيمات وبدأ يقتل الناس كبارًا وصغارًا واستولى على مواشي الطوارق وسمم آبارهم، ولم تستطع حكومة مالي أن تخمد الثورة إلا بمساعد المغرب والجزائر حيث سلمت 35 رجلًا من قادة الطوارق ليودعوا السجن في باماكو ثم أعدموا وفرضت مالي بعد ذلك حكمًا عسكريًا على مناطق الطوارق. وقد أدت ثورة كيدال إلى هجرة جماعية للطوارق إلى البلدان المجاورة الجزائر وموريتانيا وليبيا - خوفًا من بطش الجيش المالي[1].

(1) وفي عام 1988 تأسست الحركة الشعبية لتحرير أزواد، وهي أول تنظيم سياسي للطوارق الماليين، ومهدت هذه الحركة لظهور حركات أخرى أكثر تنظيمًا وصولًا إلى الحركة الوطنية لتحرير أزواد عام 2012.

ثورة الطوارق الثانية 1990 - 1996:

بـدأت الثـورة الثانيـة للطـوارق فـي أزواد عـام 1990 بمهاجمـة الحركـة الشـعبية لتحريـر أزواد وانتهـت عـام 1996 بحـل الحـركات الطوارقيـة الثائـرة وتسـليم الثـوار أسـلحتهم، وارتكـب الجيـش المالـي خلالهـا العديـد مـن الجرائـم فـي حـق المدنييـن العـزل.

أدت الثـورة إلـى هجـرة جماعيـة إلـى البلـدان المجـاورة، وجـاء جفـاف السـبعينيات الـذي ضـرب منطقة السـاحل لتجـف الآبار وتذهـب بالبقيـة الباقية مـن الثـروة الحيوانيـة، فحدثـت هجـرة جديـدة نحـو الجزائـر وليبيـا وموريتانيـا ونيجيريـا. وكان اسـتيلاء العقيـد معمـر القذافـي علـى الحكم في ليبيـا عام 1969 فرجًـا للطـوارق إذ أعلنـت السـلطات الليبيـة ترحيبهـا بهـم وفتحـت الحـدود لهم وأتاحـت الفرصـة لأبنائهـم للالتحـاق بالمـدارس الحكوميـة وضمـت المتعلميـن منهـم فـي الإدارات العمومية ودمجت شـبابهم فـي الجيش الليبـي ليتلقوا تكوينًا عسـكريًا فـي الكتيبـة الخضـراء التـي شـكلها القذافـي مـن الطوارق.

وبعــد انتهــاء الحــرب الليبيــة التشــادية (1978 - 1986) فــاوض العســكريون الطــوارق فــي ليبيــا الســلطات الليبيــة بشــأن وعودهــا الســابقة

فـي مساعدتهم فـي تمويـل ثورتهـم ليتـم بعـد ذلـك تأسـيس الحركـة الشـعبية لتحريـر أزواد عـام 1988 [1].

(1) يذكر أن الرئيس القذافي كان قد سمح لقادة من الطوارق أن يحملوا سلاحهم ويأتون إلى ليبيا وينضمون إلى جيشه وذلك في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. وهؤلاء كانوا يعتبرون القذافي منحدرًا من سلالات الطوارق إذ أن اسم قذاف الذي ينطقونه "غزاف" اسمٌ منتشرٌ بين عشائر الطوارق. وأدت الروابط الثقافية بين عشيرة الرئيس القذافي والطوارق - أدت بالقذافي أن ينتهز هذه الفرصة ليجند المئات من طوارق مالي في جيشه. وعندما اكتسح الجفاف ساحل مالي في أوائل الثمانينيات وقتل ماشية الطوارق وجمالهم فإن القذافى مديره إلى هؤلاء خصوصًا أن كان البديل المحتمل هو هجرة هؤلاء إلى جنوب مالي ليحيوا بين أفقر الفقراء في العاصمة الفقيرة باماكو. ولكن مع سوء العلاقات التي جدت بين القذافي والغرب وبلغت أدنى نقطة لها عام 1988 لم يعد لديه الإمكانية=الاقتصادية ليغطي نفقات الجيش ومن ثم عاد الطوارق الماليون إلى حدودهم وسمح لهم باستبقاء أسلحتهم، وجعل وجود من يؤيدون القذافي من المقاتلين المنتشرين في الصحراء قدما هاما له في عديد من البلدان مثل موريتانيا والنيجر وغرب الصحراء ومالي. ويقول المؤرخ التمبكتو باستور نوح ياتَّار:" إن فكرة الولايات المتحدة الأفريقية التي نادى بها القذافي لم تكن فكرة جديدة، بل ظل يتكلم عنها نحو عقدين من الزمان. واشتد حلمه بها عندما ضعفت شعبيته في الغرب وأنها لن تتم بالدبلوماسية الناعمة فقط، فقد كان القذافي يدرك أن الولايات المتحدة الأفريقية يتعين أن تترابط بقدر ما من العنف. ومن ثم فإن العديد من قادة التمرد الذين كانوا يخوضون حروبًا أهلية حتى التسعينيات في مالي كانوا يتلقون منه المساعدة.

أحداث الثورة

في عام 1990 بدات الثورة بمهاجمة "الحركة الشعبية لتحرير أزواد" سجن ثكنة عسكرية للجيش المالي، فرد الجيش المالي بالهجوم على المدنيين الطوارق العزل، وذلك للضغط على الثوار. وأدت اعتداءات الجيش المالي على المدنيين الطوارق إلى موجة نزوح جديدة، وأدانت المنظمات الحقوقية المذابح التي ارتكبها الجيش المالي ضد المدنيين الطوارق، وبعثوا إلى الرئيس الفرنسي حينذاك فرانسوا ميتران يطالبون بسرعة التحرك بحكم علاقات بلاده بجمهورية مالي. وبعد هذه الرسالة تدخلت فرنسا وأجبرت سلطات مالي على الجلوس إلى طاولة المفاوضات مع الحركة الشعبية لتحرير أزواد وأسفرت المفاوضات على اتفاقية سمنراست.

اتفاقية سمنراست 1991

سعى الرئيس المالي موسى تراوري لوقف هجمات الثوار الطوارق، وعبر عن استعداده للاستجابة لكل مطالب الطوارق وعقد اجتماعًا بين الحكومة المالية والحركة الشعبية لتحرير أزواد في سمنراست جنوب الجزائر. وتم توقيع اتفاق ينص على وقف

الهجمات من الطرفين وسحب القوات المالية من منطقتي تمبكتو وكيدال ومنح المنطقتين حكمًا ذاتيًا مما ساعد على تخفيف الصراع والمواجهات العسكرية، إلا أن ذلك لم يرض الجيش المالي فأطاح بالرئيس وبالاتفاقية واستولى على الحكم في مارس 1991، وأعلن إلغاء الاتفاقية الموقعة بين الحكومة والطوارق بعد شهرين من توقيعها وأعلن حالة الطوارىء في كل أنحاء البلاد، وأمر الجيش بتطهير الصحراء من الطوارق، فأصبح الطوارق مستهدفين من قبل الجيش والسكان على حد سواء، وتفنن الجيش في إبادة الطوارق مرتكبًا أبشع الجرائم.

تجددت المواجهات بين ثوار الطوارق والجيش المالي، وعاد الثوار يشنون الحرب ضد الجيش ونظموا أنفسهم في عدة حركات انشقت معظمها من "الحركة الشعبية لتحرير أزواد" التي وقعت اتفاق سمنراست، وأصبح الثوار يهاجمون المدن الكبرى مثل تمبكتو، ورغم أن المواجهة لم تكن متساوية فبينما كانت الحكومة المالية تحصل على الدعم السخي من فرنسا لم يحصل الطوارق على أي مساعدات ولا حتى الدعم الإعلامي لقضيتهم، فظهرت على الساحة الأزوادية خمس حركات هي: الجبهة الإسلامية العربية لتحرير أزواد

وهـي تمثـل العـرب فـي أزواد، والجيش الثـوري لتحريـر أزواد، والجبهة الشـعبية لتحريـر أزواد، والجبهـة المتحـدة لتحريـر أزواد وهـي فصيل يضم كل المنشـقين مـن كل الحـركات الطوارقيـة، والحركـة الأم الحركـة الشـعبية لتحريـر أزواد التـي يقودهـا إيـاد أخ غالـي التـي تصدعـت بفعـل الانشـقاقات المتكررة.

توقيع المعاهدة الوطنية 1992

أتـت أول انتخابـات رسـمية فـي مالـي بأسـتاذ التاريـخ عمـر كونـاري رئيسًـا للبـلاد. وكان أول قـرار اتخـذه إنهـاء الحـرب مع الطوارق، واشـترط علـى الطوارق التخلـي عـن فكـرة الاسـتقلال، وعبـر عـن اسـتعداده لأي حـل فـي إطـار الوحـدة الوطنيـة، فتـم عقـد اجتمـاع حضـره ممثلـو دول المنطقـة بالإضافـة إلـى ممثلـي فرنسـا ووقـع اتفـاق سـمي "بالمعاهـدة الوطنيـة" يحصـل بموجبهـا إقليـم أزواد شـمال مالـي علـى اسـتقلال ذاتي ويخصص جـزء مـن ميزانية مالي لرفع مسـتوى معيشـة الإقليـم، ويتـم إنشـاء مكتـب فـي باماكـو لحـل مشـاكل الإقليـم، كما يتم دمـج عـدد مـن الثـوار الطـوارق فـي الجيـش المالـي، علـى أن يتـم دمـج البقيـة فـي الحيـاة المدنيـة. وطالـب الطـوارق بلجنـة دوليـة لضمـان تنفيـذ الاتفـاق وتفعيلـه، وإنشـاء لجنـة تقصـي حقائـق حـول المجـازر التـي وقعت في الشـمال

ومحاسبة مرتكبيها، ولم يتم تنفيذ أي بند من بنود الاتفاق سوى دمج مجموعة قليلة من الثوار في الجيش المالي، حتى هؤلاء سرعان ما هربوا منه بسبب المعاملة السيئة التي تلقوها من قادته الذين كانوا قد اعترضوا على المعاهدة وأيدوا الحل العسكري.

عادت المواجهات بين الثوار الطوارق والجيش المالي أكثر ضراوة، وتعذرت السلطات المالية بقلة الإمكانيات المادية، وأن هذا هو السبب المباشر في عدم تطبيق الاتفاقية، وقامت بحملة دبلوماسية إلى الدول المجاورة بقصد منع احتقان القادة الطوارق، ونجحت في إقناع الدول بطرد قادة الطوارق وإجبارهم على العودة إلى طاولة المفاوضات والرضا بالقليل، وتم توقيع اتفاق سلام في مهرجان تحت شعار "شعلة السلام" بحضور ممثلين عن الدول الأفريقية والأوروبية، وسلم الثوار الطوارق ثلاثة آلاف قطعة سلاح.

ثورة الطوارق الثالثة 2006:

في عام 2006 بلغ اليأس مداه من عدم تطبيق اتفاقية سمنراست فانفجرت الثورة الثالثة، قادها ضباط من الطوارق منشقون من جيش مالي وانضم إليهم سياسيون ومثقفون من المجتمع الأزوادي وأعلنوا حركة باسم "التحالف الديمقراطي من أجل التغيير" وشنوا هجمات

على حاميات عسكرية في كيدال، ولكن لم تصمد الحركة طويلًا وانتهت الانتفاضة من العام نفسه إثر وساطة جزائرية بتوقيع اتفاق الجزائر بين الحكومة المالية والتحالف الديمقراطي، ونص الاتفاق على استعادة الأمن والتنمية في منطقة كيدال، وكانت بنوده هزيلة لا ترقى إلى مستوى الحفاظ على البقاء. وفي ذلك العام شارك العقيد الليبي معمر القذافي في احتفال عيد المولد النبوي في مدينة تمبكتو، واتهمته أطراف مالية بدعم حركات التمرد الطوارقية.

ثورة الطوارق الرابعة 2012:

بعد خمسين عامًا من النضال قام الطوارق بثورتهم الرابعة التي حققت استقلال إقليم أزواد وانفصاله عن جمهورية مالي.

بدأت ثورة الطوارق الرابعة عام 2012 بعودة الطوارق الذين كانوا يقاتلون في جيش العقيد الليبي معمر القذافي ضمن الجيش الليبي. وبعد سقوط القذافي في أوائل عام 2011 عاد آلاف الطوارق إلى شمال مالي مدججين بأسلحة ثقيلة وانضموا إلى الحركة الوطنية لتحرير أزواد التي نشأت من اندماج الحركة الوطنية للأزواد والحركة الطوارقية لشمال مالي.

في يناير 2012 بدأ مسلحو الحركة الوطنية لتحرير أزواد هجومًا استغرق أسابيع على عدة مدن شمال شرقي مالي قرب الحدود مع الجزائر مما أجبر عشرات الآلاف من المدنيين على النزوح خاصة إلى الجزائر، وكان هذا إيذانًا ببدء التمرد الرابع في تاريخ الطوارق المالية.

وفي مارس 2012 وقع انقلاب عسكري أطاح بالرئيس "أمادو توماني توري" احتجاجًا على تقصير توري في مواجهة التمرد"، واستغل مسلحو الطوارق الفوضى التي نتجت عن الانقلاب ليبدأ الفصل الأخير من رابع تمرد كبير في تاريخهم، وفي غضون أيام استطاعت أن تسيطر على مدن كيدال وتمبكتو وغاو، واستغلت جماعات مسلحة أخرى الوضع. يرتبط بعضها بتنظيم القاعدة مثل جماعة أنصار الدين وحركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا وباتت تشارك في السيطرة على هذه المدن الرئيسية. وفي 16 أبريل 2012 أعلنت الحركة الوطنية لتحرير أزواد انفصالها عن مالي واستقلال أزواد. وأكدت اعترافها بدول الجوار وتعهدت بالعمل على توفير الأمن والشروع في بناء مؤسسات ودستور ديمقراطي لدولة مالي. ولكن الإعلان قوبل بالرفض الدولي والإقليمي.

رفضت دول الجوار الجزائر وموريتانيا والنيجر إعلان الانفصال،

وردت المجموعـة الاقتصاديـة لغرب أفريقيا بتشـكيل نواة لقوة عسـكرية تحسـبًا لتدخـل عسـكري فـي مواجهـة التمـرد فـي شـمال مالـي، واندلعـت مواجهـات واشـتباكات بيـن الحركـة الوطنيـة لتحريـر أزواد والجماعـات الإسـلامية الناشـئة فـي غـرب أفريقيـا، وفقـدت الحركـة الوطنيـة لتحريـر أزواد السـيطرة علـى غـاو، وسـيطرت الجماعـات الإسـلامية علـى مناطـق أزواد لتتدخـل فرنسـا لمحاربتهـا فـي ينايـر 2013 علـى إثـر طلـب مـن الحكومـة الماليـة. وفـي غضـون أقـل مـن شـهر تمكنـت القـوات الفرنسـية مـن السـيطرة علـى مناطـق أزواد الثلاثـة كيدال وتمبكتـو وغـاو، ولا يـزال التدخـل الفرنسـي مسـتمرًا.

***

أهم لمحات تاريخ مالي[1]

- في سنة 1325: انضمت صحراء أزواد إلى مملكة مالي الإسلامية، واحتفظت بحكم ذاتي.
- 1433: تخلت مملكة مالي الإسلامية عن سيادتها على صحراء أزواد.
- 1591: احتل المغاربة منطقة أزواد.
- 1893: وصول الاستعمار الفرنسي إلى المنطقة، وشهدت المنطقة مقاومة كبيرة من الطوارق بمالي والجزائر وثورة الشيخ أمود.
- 1960: منحت فرنسا الاستقلال الفيدرالي لمالي وضمت السنغال وجمهورية السودان الفرنسي وصحراء أزواد.
- 1961: انسحبت السنغال وغيرت جمهورية السودان الفرنسي اسمها إلى مالي وظلت صحراء أزواد ضمنها.

1 نقلًا عن الموسوعة الحرة- ويكيبيديا.

- 1963: اندلعت الاضطرابات الانفصالية ضد الحكومة المالية في محاولة لاستقلال أزواد وفصلها عن مالي.
- 1991: توقيع اتفاق "سمنراست" بين الجبهات الأزوادية والحكومة المركزية المالية.
- 1994: توقيع الميثاق الوطني بين الحكومة المالية والجبهات الأزوادية ينص على اللامركزية ودمج مقاتلي الطوارق في مؤسسات الدولة العسكرية والمدنية. كما نص على تنمية الشمال بالإضافة إلى مبادرات للمصالحة.
- 1996: نهاية الاشتباكات المسلحة بين الحركات الأزوادية وقوات حكومة مالي وتوقيع اتفاق سلام، يسلم المسلحون الطوارقيون ثلاثة آلاف قطعة سلاح. وتم حل الجماعات المقاتلة رسميًا.
- 2005: تأسيس حركة التحالف من أجل التغيير واستأنفت القتال ضد الحكومة المالية.
- 2009: سلمت حركة التحالف من أجل التغيير أسلحتها ضمن تسوية تنافس على إعدادها كل من ليبيا- والجزائر. وذلك

بعد أن نجحت القوات المالية في تفكيك قواعد المتمردين والاتفاق على تسلم المتمردين أسلحتهم للحكومة، وتضمن تفاهمات جديدة بشأن دمجهم في القوات المسلحة، بيد أن المتمردين رفضوا الانخراط في مسار التسوية.

- 2010: تأسيس الحركة الوطنية الأزوادية.
- 2012: انطلاق ثورة الكفاح المسلح "الحركة الوطنية لتحرير أزواد".
- 2012: إعلان أزواد كدولة مستقلة عن مالي من طرف الحركة الوطنية لتحرير أزواد.
- 2013: التدخل الفرنسي وسيطرته على مناطق أزواد الثلاثة كيدال وغاو وتمبكتو.

***

ثالثًا: أطراف الصراع:
من المسئول عن العنف؟

1 - مسئولية حكومة مالي

خلال السنوات الأخيرة ظل إقليم أزواد في شمال مالي أخطر مناطق الساحل والصحراء اشتعالًا، حيث أصبح مركزًا وعمقًا استراتيجيًا لنشاط قاعدة المغرب الإسلامي والعديد من عصابات تهريب المخدرات الدولية. غير أن ما تسميه الحركة الوطنية لتحرير أزواد حرب تحرير قادت إلى انقلاب عسكري ووضعت الإقليم على فوهة بركان صراع محتمل للميليشيات المسلحة المتعددة المنتشرة في كل الشمال المالي.

مر الصراع في الإقليم بعقود طويلة من المد والجزر، وكانت الغلبة دائمًا للنظام المالي الذي نجحت سياسته في إخضاع الإقليم لحكمه دون أن يبذل جهدًا تنمويًا في مدن الشمال. والحقيقة أن عبء ديون مالي تستهلك الكثير من مواردها ولا يبقى إلا القليل لتطوير

احتياجاتها، وهذا العجز التنموي هو ما دعا الطوارق أن تظهر لديهم فكرة الانفصال عن الجنوب.

في مارس 2012 وقع أغرب انقلاب في مالي، قام به أحد قادة الجيش ممن تدربوا في أمريكا سابقًا "النقيب أمادو سانوغو" حيث جاء الانقلاب قبل شهر واحد من موعد الانتخابات الرئاسية في البلاد التي كان محددًا لها أبريل 2012، وأعلن وقتها الرئيس أمادو توماني عدم ترشحه فيها لإتمامه المرحلة الثانية من الحكم، رغم أن الدستور يجيز له الترشح لفترة ثالثة.

حدث الانقلاب بلا أي أهداف أو أسباب معقولة حيث كان السبب المعلن عدم استجابة الحكومة لمطالب قادة الجيش بتسليح رفاقهم الذين يعانون من هزائم متكررة في شمال البلاد في حربهم ضد الطوارق وأنشطة مجموعات إسلامية مسلحة وأفراد تنظيم القاعدة، طالبوا بذلك مع علمهم باستحالته للوضع الاقتصادي المتردي للبلاد، وكذلك لأن قوام الجيش المالي صغير .

احتدمت مشاعر الغضب في صفوف الجيش على أسلوب معالجة الحكومة للتمرد الذي يقوده الطوارق وأودى بحياة عشرات من الناس، وأجبر نحو 200 ألف مدنيًا على ترك ديارهم. وكشف

ذلك عن ضعف سيطرة الحكومة المالية على النصف الشمالي للبلاد ومماطلتها في إحباط تمرد قبائل الشمال.

وإذا عدنا بالذاكرة إلى حركة التمرد التي جرت 1990 نجد أن دولة مالي أدركت وقتها أن الحل العسكري غير ممكن فوقعت الحكومة مع الطوارق اتفاق تمنراست أدى إلى تحالف وطني عام 1992، كان الاتفاق أن تقيم الدولة نوعًا من أنواع اللامركزية مع شيء من التطور واعتبر وقتها هذا انتصار للطوارق. وتطبيقًا للاتفاقية وبغية تهدئة نزاعات الاستقلال لدى الطوارق شمال البلاد، فقد أخذ الرئيس الفا عمر كوناري قرارًا بدمج مئات المحاربين المتمردين بالجيش النظامي مما اثار العسكريين كما سبق أن ذكرنا وأدي في عام 1994 إلى هرب المدمومين مشككين في وعود الحكومة وانضموا بأسلحتهم للمتمردين. وفشل الرئيس كوناري في مواجهة هذه الأحداث والتطورات أو أن يضع أي خطة أو أجندة لتنفيذها فترك المنصب عام 2002، وخلفه "أمادو توماني توري" ليواجه نفس الوضع الصعب، وبالرغم من أنه كان قائدًا سابقًا في الجيش فلم يكن قادراً على إيجاد حل للأزمة المالية لديون مالي، واستمرت الاضطرابات في الشمال. وفي عام 2006 استولى الطوارق على قاعدتين عسكريتين في كيدال

ومناكا، فسارعت الحكومة بعقد "اتفاق سلام" وعدت فيه بأن تنجز وعود التطوير فورًا ولكنها عجزت عن ذلك. فتجددت المعارك بين العسكرية المالية والطوارق، وادعى الرئيس تورى أنه لا يشن حربًا مع طوارق الشمال بل هو صراع شامل ضد الإرهاب، واستخدم تهديد خطر القاعدة AQIM ليحصل على مزيد من المال ليستطيع أن يواجه الإرهاب لا التطوير.

ونظرًا لتعذر مشروع التنمية واللامركزية الموعود بدأ حاملوا السلاح من مختلف أطيافهم يعلنون أن عدوهم مشترك واحد وهو الجيش المالي الذي يمثل الدولة. وفي نهاية يناير وقعت مجزرة حامية كيدال قتل فيها ثمانون جنديًا وذبح بعضهم من قبل مغرزة تضم عدة مجموعات مسلحة في المنطقة الحركة الوطنية لتحرير أزواد وحركة من أنصار الدين. وفي مارس 2012 وقع الانقلاب العسكري إذ اقتحم عسكريون من الجيش المالي مبنى الإذاعة والتلفزيون في العاصمة باماكو وطوق آخرون القصر الرئاسي وقاموا بمحاصرة الرئيس أمادو توري وعائلته واعتقلوا عددًا من الوزراء وأعلنوا إنهاء حكم الرئيس توري وحل جميع المؤسسات الحكومية، وتعليق تنفيذ دستور البلاد وتعيين النقيب "أمادو سانوغو" لتولي المسألة.

احتج آلاف الماليين في العاصمة باماكو منددين بسلطة الانقلاب العسكري ومطالبين بعودة النظام الديمقراطي للبلاد. كما اندلعت مواجهات بين الحركة الوطنية لتحرير أزواد والجماعات المتشددة الناشطة في أزواد، حيث جرت اشتباكات بين الحركة الوطنية لتحرير أزواد وحركة التوحيد والجهاد في غاو عاصمة أزواد مما أدى إلى وقوع عدد من القتلى من كلا الطرفين، وفقدت الحركة الوطنية لتحرير أزواد السيطرة على غاو. وبعد هذه المواجهات سادت سيطرة الجماعات الإسلامية المتشددة. وخوفًا من تقدمهم نحو العاصمة باماكو طلبت الحكومة المالية من فرنسا التدخل العسكري، وأعلنت الجماعة الاقتصادية لدول غرب أفريقيا (الايكواس) عزمها على إرسال قوات إلى شمال مالي، وصوت مجلس الأمن بالإجماع لصالح مشروع قرار فرنسي يطالب حكومة مالي بوضع خطط عسكرية للسيطرة على الجزء الشمالي من البلاد وهي منطقة تفوق مساحتها مساحة فرنسا.

في البداية أعلنت فرنسا أن التدخل العسكري في شمال مالي بات وشيكًا، وأن فرنسا لن تشارك في القتال ميدانيًا بل ستقدم مساعدات تقنية ولوجستية للقوة الأفريقية. ثم تغير الحال بعد استصدار مجلس الأمن قرارًا برقم 2085 يسمح بنشر بعثة دعم دولية في مالي بقيادة

أفريقية مدتها عام واحد.

ادعى الرئيس الفرنسي "هولاند" أن أهداف الحملة العسكرية في مالي هي وقـف الاعتـداء وتأميـن العاصمة باماكـو والحفاظ على وحدة أراضـي مالي. وتبع ذلـك سلسـلة من التعهدات من الدول الغربية بريطانيـا وبلجيكا وألمانيا وهولندا وإيطاليـا والولايـات المتحـدة بدعم القوات الفرنسـية، ورحب الأميـن العام للأمم المتحـدة "بـان كـي مـون" بالتدخـل الفرنسـي فـي مالـي، وتفهمـت كافـة الدول الأعضـاء فـي مجلـس الأمن التدخل في مالي، ووافق الاتحاد الأوروبي على إرسـال عسـكريين لتدريـب الجيـش المالـي في ظـل وعود مـن بعض دول غـرب أفريقيا مثـل السـنغال وبوركينـا فاسـو والنيجـر ونيجيريـا وغينيا بإرسـال جنـود للانضمام إلـى قـوة الايكـواس (الجماعـة الإقتصادية لـدول غرب أفريقيا). فسـارعت فرنسـا منفـردة بإعـلان بـدء العمليـات العسـكرية فـي مالـي فـي ينايـر 2013، ونظمـت قـوة قوامهـا 1700 مقاتـلًا يسـاعدها فريـق مـن قـوات تشـاد ضمـن مـا أطلقـت عليـه اسـم عمليـة "سـيرفال" أو القـط المتوحـش، وشـنت الطائـرات الفرنسـية ضربـات جويـة طالـت حزامًـا واسـعًا من معاقـل المتمرديـن يمتد من غـاو ويمر بكيـدال في شـمال شـرق أزواد بالقرب مـن الحدود مع الجزائـر، وفي غضون أقل

مـن شـهر من بـدء التدخـل تمكنت القوات الفرنسـية من السـيطرة علـى مناطق أزواد الثلاثـة كيدال وغـار وتمبكتو.

2 - التدخل الفرنسي

أن هـدف فرنسـا مـن تدخلها فـي مالـي وغيرهـا مـن دول الصحـراء والسـاحل هو اسـتعادة موروثها الاسـتعماري في المنطقة، وهي تسـتغل انتشـار المجموعـات الإرهابيـة مـن أجـل تعزيـز انتشـارها العسـكري فـي الحـزام الأمني لـدول السـاحل والصحـراء. وعندمـا أقـدم الغـرب علـى إسـقاط القذافـي وتدميـر الجيـش الليبـي لـم يكـن يـدرك أنـه قـدم ليبيـا هبـة للجماعـات الإرهابيـة التـي اسـتغلت الفـراغ الأمنـي والفوضى التي تعيشـها البلاد في التغلغـل داخل مفاصل البـلاد. والآن تسـعى فرنسـا أن تسـتثمر هـذا الإرهـاب لتشـيد قاعـدة عسـكرية فـي ليبيـا بحجـة التصـدي للجماعات الإرهابية المنتشـرة فـي المنطقـة. والجدير بالذكـر أن لفرنسـا فـي شـمال النيجـر علـى مقربـة مـن الجنـوب الليبـي أكبـر قاعـدة عسـكرية. كمـا أن فرنسـا تعتبـر مالـي منطقـة نفوذٍ لهـا؛ لذلـك تعتبر أنه يجـب أن تكـون هـي اللاعـب الرئيسـي للقيـام بـدور سياسـي والظهـور فـي هذا العالـم الـذي لا يحتكـم إلا للقـوة. أخـذا فـي الاعتبـار أن الـدول الغربيـة الكبـرى ترغـب فـي إنشـاء قواعد عسـكرية لها فـي الحزام الأمنـي لدول السـاحل، وهو ما

يعتبره بعض المحللين بداية لاستعادة موروثها الاستعماري السابق.

ظلت فرنسا تعرب بين الحين والآخر لكافة الدول الأفريقية عن التزامها بالتدخل حينما ترى أن مصالحها أو مصالح حلفائها مهددة سياسيًا أو أمنيًا. يضاف إلى ذلك العامل الاقتصادي الذي يتعلق بمصادر الطاقة ومناجم اليورانيوم حيث يعتبر إقليم أزواد المالي وأزواد النيجيري أهم المراكز التي تعتمد عليها فرنسا في الحصول على الطاقة، وتعد النيجر أكبر منتج لهذا المورد في العالم. وتحتكر الشركات الفرنسية استخراج اليورانيوم من مناجم النيجر منذ أكثر من أربعين عامًا؛ لذا تضطلع فرنسا لاستثمار الموقع الاستراتيجي لدول غرب أفريقيا والأسواق التي يضمها الإقليم.

وقد اتخذت فرنسا من صحراء الطوارق منطقة للتجارب النووية، نفذت في عام 1957 التجارب النووية السبعة عشر التي قامت بها في صحراء الطوارق، وفي عام 1960 شاركت بعثة إسرائيلية في التفجيرات النووية الفرنسية في صحراء الطوارق. واجتاحت الصحراء حينذاك أنواع من الأوبئة والأمراض التي لم تعرف أسبابها حتى اليوم، وأصبحت تلك الأعوام تحمل في ذكرى الطوارق ما يسمى "عام الموت" و"عام السعال" و"عام الجدري" وغيرها من الأمراض التي

كانت نتيجة الإشعاعات التي تعرضوا لها. وقد حرصت الإدارة الاستعمارية على تنفيذ هذه التجارب في المناطق المأهولة بسكان الطوارق لتسجيل مدى فاعليتها في البشر، وتلا هذا الموت الذي تعرضوا له جفاف أتى على ماشيتهم مصدر حياتهم وثرواتهم.

والشاهد أنه منذ استقلال مالي الشكلي ودول منطقة الغرب الإسلامي الأفريقي عمومًا، وفرنسا تمارس فيه كل أصناف التدخل في هذه المنطقة وتسعى على عمل علاقات مع كل الأطراف سواء النظام الحاكم أو الطوارق بأجنحتهم المختلفة، حتى أن إعلان استقلال إقليم أزواد في أبريل 2012 تم إعلانه من باريس دون أي تعليق من الحكومة الفرنسية.

ومع تصاعد الأحداث رأت فرنسا أن تتمركز القوات الفرنسية في مالي وبوركينا فاسو والنيجر وتشاد وتستعين بتسهيلات عسكرية في موريتانيا، وذلك لتخوض مواجهة الاضطرابات عبر الساحل كله من ساحل موريتانيا على المحيط الأطلسي إلى السودان. وتصف فرنسا هذا القضاء الواسع بأنه المنطقة الخطرة التي تحوي كل أشكال التهريب، وأنها أيضًا مفتاح الأمن لدول أفريقيا، ومن ثم فعليها أن تعيد تنظيم قواتها لمواجهة الإرهاب عبر العديد من الدول.

لـم تتباطـأ فرنسـا فيمـا عزمـت عليـه وأعلنـت فـى يوليـو 2014 أنهـا تسـتعد لتشـكيل ثـورة فرنسـية جديـدة تتولـى مكافحة الإرهاب فـى منطقة السـاحل، واطلقت عليهـا اسـم «برخان»(وهـو اسـم تـل رملـى علـى شـكل هـلال فـى العاصمة التشـادية) تضـم القـوة ثلاثـة آلاف جنـدى تخلـف مـن عملية «سـيرفال» التـى أطلقتها فرنسـا فى ينايـر 2013 لمحاربـة المجموعات الإسـلامية المسـلحة، وأنها تندمج فيهـا قوة «الصقر» وقوة «السـيف» المنتشـرتان فى تشـاد وبوركينافاسـو، وإن الهدف من إعادة التشـكيل الجديـد للقـوات الفرنسـية هـو السـماح بالقيـام بتدخـلات سـريعة وفعالـة فـي حالـة حصـول أزمـة، وذلـك بالتعـاون مع القـوات الإفريقية وبالشـراكة مع الـدول الخمس فى المنطقـة (موريتانيـا ومالـى وبوركينافاسـو والنيجر وتشـاد).

وهـذا الإجـراء الفرنسـى إتخذتـه فرنسـيا بمبـادرة منها وحدهـا دون موافقة دوليـة، فهـى وإن كان مجلـس الأمـن فوضهـا فـى التدخـل فـى مالـى فهـى لـم تفـوض بالتدخـل فـى بقيـة دول السـاحل .

ورغـم ذلـك فإنهـا تصـف تدخلهـا بأنـه إعـادة تنظيـم للمنطقـة، وأعلنـت أنهـا سـتبقى حسـبما تمليـه الضـرورة، ولا يوجـد تاريـخ محـدد لذلـك. ولـم تذكـر فرنسـا أي شـىء عـن وسـائلها فـي التدخـل ومواجهـة مـا تسـميه الإرهـاب، ومـا يثيـر الشـكوك حـول نوايـا فرنسـا فـي المنطقـة

أن إعلان استقلال إقليم أزواد تم من باريس. ولماذا مثلًا أعطت السلطات الفرنسية لإياد أخ غالي قائد جماعة أنصار الدين طريقًا حرًا عبر الإقليم وتركت مجموعة من المقاتلين الإسلاميين يفرون من تحت قبضتها إلا أن تكون قاصدة أن تبقى لنفسها مبررًا لوجودها.

فما هي دوافع الفرنسيين في الحرب في مالي والساحل؟

السبب المعلن هو الحفاظ على مصالح فرنسا الاقتصادية في غرب أفريقيا، ولكن السبب الحقيقي هو الأطماع الاستعمارية لكل دول أوروبا في شمال، غرب، ووسط أفريقيا، والحفاظ على الإرث القديم والممالك الاستعمارية منذ الحملة الفرنسية على الشمال الأفريقي في القرن 19. والآن جد نظام عالمي جديد، وهناك توزيع أدوار بين القوى العالمية وتوزيع لمناطق جديدة: العراق وما حولها منطقة امتياز أمريكية، وليبيا وما حولها منطقة امتياز فرنسية، وهم يهيئون الظروف من أجل التدخل من خلال زعزعة المناطق المستهدفة وإدخال الإسلاميين إليها ليكونوا الذريعة للتدخل. وتحت مقولة محاربة الحركات الجهادية التي يسمونها إرهابية يقومون بقتل المدنيين والعزل وكل من يشتبهون بصلة لهم بالطوارق.

وتتلخص أهداف فرنسا في الحرب في مالي في:

1. انحسار النفوذ الأمريكي بالشرق الأوسط، وتباطؤ الحضور الصيني في القارة الأفريقية دفع فرنسا لإعادة حساباتها في المنطقة.
2. علاقة فرنسا الآخذة بالتحسن مع الدول الأفريقية المحاذية لمالي من جهة الشمال عزز من قبولها لأي دور فرنسي في عمق الصحراء.
3. قطع الطريق على احتمالات صعود نجم تنظيم القاعدة في الصحراء الأفريقية وتمددها نحو الشمال وصولًا إلى السواحل الغربية للقارة الأفريقية.
4. تناغم الموقف الفرنسي مع دول عربية بشأن الملف المالي.
5. أن شمال مالي يتطلب وجودًا مستمرًا وأساسيًا للقوات الفرنسية لأنه برغم وجود قوة حفظ السلام الأفريقية والمدربين للجيش المالي التابعين للاتحاد الأوروبي، والعمليات العسكرية التي قامت بها القوات الفرنسية فلا يزال المتمردون ينشطون في المنطقة ويعيدون تنظيم أنفسهم.
6. أمور تتعلق بتجارة المخدرات في الغرب الأفريقي.
7. التهديدات بإثارة القلاقل في تشاد من جانب المتمردين.
8. الأخطار المتزايدة الذي تشكلها جماعة بوكوحرام في نيجيريا

لجيرانها وخاصة في النيجر والكاميرون وتشاد.

9. مبرر لوجودها المستقبلي مما يجعل من فرنسا مجددًا في عمق مهم في القارة الأفريقية بعد سنوات من الغياب.

باختصار إن منطقة غرب أفريقيا تمثل لفرنسا كنزًا استراتيجيًا لا يمكن التخلي عنه، وكان ذلك من أهم أسباب قيادة فرنسا للإطاحة بالقذافي لتدخله وتهديده لسيطرتها ونفوذها في منطقة الساحل وفي غرب أفريقيا عامة. ولكن الغرب دون أن يدري بتدميره الجيش الليبي أتاح للجماعات الإرهابية التي استغلت الفراغ الأمني والفوضى التي تعيشها البلاد في التغلغل داخل مفاصل الدولة.

3 - دول الجوار

إن الجزائر وموريتانيا والنيجر وبوركينا فاسو وساحل العاج والسنغال يؤيدون التدخل الفرنسي في المنطقة. فما الذي يدفع هذه الدول إلى اتخاذ هذا الموقف، هل وجود تنظيم القاعدة أشد وطأة من وجود الاحتلال الفرنسي، أم أن هناك تفاهمات سرية بينها وبين فرنسا.. المهم أن دول مجموعة الساحل والصحراء التي تضم 28 بلدًا عقدت قمة طارئة اجتمعت في بنجامينا عاصمة تشاد في فبراير 2013 بعد التدخل الفرنسي بشهر واحد (كانت مجموعة دول الساحل

تكونـت فـي فبرايـر 1998 فـي ليبيا بمبـادرة من الزعيـم الليبي معمـر القذافي). وفـي ختـام القمـة الطارئـة أعـرب المجتمعـون عـن امتنانهـم لفرنسـا لتدخلهـا العسـكري فـي مالـي، وأعلنـت المجموعة مسـاهمتها بــ 500 مليـون فرنك غرب أفريقـي (760 ألـف يـورو) للقـوة الدوليـة لغـرب أفريقيـا التي فوضت لاسـتعادة السـيطرة علـى الشـمال الـذي يسـيطر عليـه الإسـلاميون، ووجهـوا نـداء لمواصلة دعمهـم للعمليـة السياسـية والدبلوماسـية العسـكرية بغيـة التوصل إلى اسـتقرار نهائـي فـي مالي.

وتعهـدت الجزائـر بتقديم مسـاعدات عسـكرية وتدريب طيارين مـن دول مالي والنيجـر وموريتانيـا لتطويـر القـوات الجويـة لهـذه البلـدان فـي مواجهـة الإرهـاب بالمنطقـة، وعقـدت في مدينة تمنراسـت في جنـوب الجزائر اجتماعًـا لقادة الجيوش الأربعـة الجزائـر ومالي والنيجـر وموريتانيا لبحث ملفات مكافحـة الإرهاب والجريمة المنظمـة، وتعهـدت الجزائـر خلالـه بإصلاح طائـرات سـلاح الجـو في كل مـن النيجر وموريتانيـا ومالـي. وتنسـق جيـوش الدول الأربعة جهـود مكافحة الإرهـاب والجريمة المنظمـة فـي إطـار لجنـة أركان العمليـات المشـتركة التـي تـم تأسيسـها عـام 2010 ومركزهـا مدينـة تمنراسـت الجزائريـة، وذلـك لمواجهـة تنظيـم القاعـدة والجماعـات المسـلحة الأخـرى التـي تنشـط في تلـك الدول.

وأعلـن وزيـر داخليـة النيجـر أن حكومتـه تضـع تـراب النيجـر رهـن إشـارة القـوات العسـكرية الدوليـة لتجعـل منـه منصـة الخدمـات اللوجسـتية لمحاربـة الجهاديـيـن نظـرًا للموقـع الجغرافـي لدولـة النيجـر فهـو يشـكل المكان الأنسـب الـذي يوفـر الخدمـات اللوجسـتية والاسـتخباراتية الضروريـة فـي مكافحـة الجماعـات الجهاديـة.

وقـال رئيـس مجلـس النـواب الموريتانـي أن الوضـع فـي مالـي بالـغ الخطـورة وإذا مـا انفجـرت نـاره وحممـه سـتدفقان لا محالة علـى كل البلـدان المتاخمة ودعا بـلاده إلـى الانخـراط فـي الحـرب التـي تشـنها فرنسـا ومجموعـة دول غـرب أفريقيا علـى المسـلحين الجهاديـيـن، وأنـه ينبغـي أن تلحـق موريتانيـا بالجهـود الجماعيـة لـدول المنطقـة وفرنسـا والمجموعـة الدوليـة مـن أجل الحفـاظ على وحدة وسـيادة وعلمانيـة جمهوريـة مالي.

وعلــى النقيـض لموقــف رئيــس مجلــس النــواب الموريتانــي أعلــن زعيــم المعارضــة الموريتانيــة "أحمــد ولــد داده" أنــه يعــارض الحــرب فــي مالــي ويعــارض مشــاركة مالــي فيهــا، واتهــم الحكومــة بالمشــاركة غيــر المباشــرة فــي الحــرب عبــر توفيــر مطاراتهــا وأجوائهــا ومرافقهــا وربمــا موانئهــا لصالــح القــوات المشــاركة فــي الحــرب. وكانــت بعــض الأحــزاب الموريتانيــة أعلنــت رفضهــا بشــكل صريــح للحــرب فــى مالــى، ورفضــت مشــاركة لموريتانيــا فيهــا

بسـبب مـا يعتبرونـه مخاطـر محدقـة ببلادهـم جـراء أي مشـاركة فـي الحـرب. نظـرًا للترابـط الجغرافـي والاجتماعـي والدينـي بيـن سـكان البلديـن.

4 - الولايات المتحدة

أمـا أمريـكا التـي لـم يكـن لها تاريخيًـا أي نفوذ فـي مالي ولا فـي غيرها من دول المنطقـة فهـي تتنافـس مـع فرنسـا الآن للسـيطرة عليها، ورسـمت سياسـتها فـي ثـلاث اتجاهات:

1. حرضـت أحـد قادة الجيـش المالي ممن تدربـوا في أمريـكا النقيب "أمادو سـانوغو" علـى القيـام بانقـلاب عسـكري غيـر مبرر وبـلا أهـداف منطقية، وفـي نفـس الوقـت شـجعت الطـوارق المطالبة بانفصـال الشـمال. وتحت شـعار الفوضـى الخلاقـة التـي بشـرت بـه السياسـة الأمريكيـة، انتشـرت الصراعـات والقلاقـل والفوضـى التـي تنهـي مقومـات الـدول وتصبـح مـن الضعـف بحيث لا تسـتطيع أن تقاوم بنفسـها فتطلب الحمايـة والعون من الدول الاسـتعمارية.

هـذا الصـراع الخفـي بيـن فرنسـا والولايـات المتحـدة هـو مـا حـدا بفرنسـا أن تحـاول أن يكـون لهـا السـبق فـي المنطقـة التـي تعتبرهـا ملـكًا لهـا، ودخـول أمريـكا بقـوة تحـت دعـوة مكافحـة الإرهـاب هـو مـا عجـل مـن التدخـل الفرنسـي فيهـا لصد الأطمـاع الأمريكيـة فـي هـذه المنطقـة التـي تحـوي الكثيـر مـن الثـروات الطبيعيـة

كالبترول والغاز والمعادن واليورانيوم الذي تهيمن عليه فرنسا. وتسعى أمريكا منذ عام 2007 أن يكون لها موطئ قدم في المنطقة؛ لذا حاولت إقامة مقر للقيادة العسكرية في أفريقيا "أفريكوم" فيها ولكن رفضت دولها وأوقفت هذه الدول طموح أمريكا بإنشاء قاعدة عسكرية كبيرة لها في المغرب الإسلامي.

ومع ذلك باركت أمريكا الخطوات الفرنسية في المنطقة بحجة محاصرة المد الإسلامي بعد تمدد القاعدة في الصحراء، ولكنها اكتفت بالرصد والاستخبارات التقني. كما كان للولايات المتحدة دور أساسي في دعم عملية سرفال الفرنسية في مالي إذ وفرت الناقلات العملاقة التي أقلت الجنود الفرنسيين إلى مالي ووفرت الدعم الدولي المناسب للحرب في أزواد، وذلك ضمن سياسة تقاسم الأدوار التي نفذها الرئيس السابق ساركوزي مع شركائه في البيت الأبيض.

والدور المكشوف للولايات المتحدة أنها قامت بتدريب عدد من الأزواد ضمن الجيش المالي، وذلك تمهيدًا لتسليحهم ضد القاعدة، ولكن عددًا كبيرًا من هؤلاء سرعان ما انضم إلى حركة أنصار الدين وأصبحوا جزءًا من العمل المسلح ضد مالي وضد المصالح الغربية.

***

رابعًا: الخلفية الحقيقية
لأحداث الغرب الأفريقي

إن الإعلام الدولي قدم ويقدم تغطية وصفية واسعة عن سباق الأحداث والكوارث في شمال مالي، ولكنه فشل في تفسير ما حدث، ولم يجاوب على التساؤل كيف ظهرت هذه التمردات، فقط تكلم على أنها ظهرت بواسطة مئات من المتطرفين الإسلاميين. ولكن هناك قصة مهمة عن خلفية هذا الوضع نشرتها مجلة نيو أفريكان NEW AFRICAN في عددها الصادر في يناير 2013 عن حقيقة لما حدث فعلًا نقلًا عن البروفيسور جيرمي كينان JEREMY KEENAN أستاذ العلوم السياسية والاجتماعية في جامعة لندن سواس SOAS. كتبت تقول: إن ما حدث يرجع إلى أنشطة المخابرات الغربية وإلى جهاز الخدمة السرية للجزائر.

إن أحداث أزواد تفسر عامة باعتبارها نتاج الإطاحة بمعمر القذافي في ليبيا. وهذا حقيقي بقدر ما أن سقوطه أعاد إلى الساحل (نيجيريا ومالي) آلاف من المقاتلين الغاضبين الذين كانوا ينشدون الخدمات

والعيش الكريم في ليبيا لخدمة نظام القذافي.

ولكن كان ذلك مجرد المشهد الأخير في عقد من الاستغلال المتزايد والقمع الذي كان حجر الأساس في حلقات الاحتجاج الطوارقي والاضطراب والتمرد. وفي هذا الخصوص فإن ليبيا كانت هي الحافز لتمرد أزواد وليست السبب المباشر، وأكثر من ذلك فإنه الكارثة الحالية في مالي هي نتيجة حتمية للطريقة التي جرت بها ما يسمى بالحرب العالمية على الإرهاب في الصحراء وفي الساحل بواسطة الولايات المتحدة ومرتبطة بالجزائر وبعملياتها الاستخبارية منذ عام 2002.

عندما تولى عبد العزيز بوتفليقة رئاسة الجزائر عام 1999 كانت بلاده تواجه مشكلتين أساسيتين أولهما: مكانتها في العالم ودور الجيش والمخابرات الجزائرية DRS في الحرب الأهلية التي شبت بمناسبة انتخابات عام 1992، التي كادت أن تكسبها الجبهة الإسلامية وهي الحرب التي أطلق عليها اسم "الحرب القذرة". والمشكلة الأخرى هي أن الجيش العمود الفقري للدولة يفتقد الأسلحة الحديثة.

وحل المشكلتين كان في يد واشنطن، وخلال مرحلة كلينتون فإن العلاقات بين الولايات المتحدة والجزائر وصلت عمليًا إلى مستوى منخفض جدًا. ومع انتصار الجمهوريين في أمريكا في

انتخابـات نوفمبـر 2002 فـإن رئيـس الجزائـر بوتفليقـة صاحـب الخبـرة فـي السياسـات الخارجيـة باعتبـاره وزيـر الخارجيـة السـابق أبـدى مشـاعره لـلإدارة الجديـدة للولايـات المتحـدة التـي سـرعان ما بـادرت فـي يوليـو 2001 للقاء قمة فـي واشـنطن بينـه وبيـن الرئيـس جـورج بـوش.

اسـتمع بـوش باهتمـام لتقديـرات بوتفليقـة لمـا تفعلـه بلـده فـي الحـروب ضـد الإرهابييـن وإلـى طلبـه للمعـدات العسـكرية الخاصـة التـي تمكـن الجيـش لإبقـاء السـلام والأمـن والاسـتقرار فـي الجزائـر. وفي هـذه اللحظة كانـت الجزائر تحتـاج إلـى دعـم كبيـر مـن الولايـات المتحـدة أكثـر مـا تحتاجـه الولايـات المتحـدة مـن الجزائـر، ولكـن الوضـع تغيـر سـريعًا فـإن عمليـة "سـبتمبر عـام 2001 فـي الولايـات المتحـدة بـدأت مرحلـة جديـدة تمامًـا فـي علاقـات الولايـات المتحـدة بالجزائـر. وخـلال السـنوات الأربعـة التاليـة تقابـل بـوش وبوتفليقـة سـت مـرات للتطويـر الأكثـر لعلاقاتهمـا السـرية. ويقول البروفيسـير/ جيرمـي كينـان إن كتابـه الأول عـن الحـرب العالميـة عـن الإرهـاب فـي الصحـراء الأفريقيـة الـذي صـدر بعنـوان "الصحـراء المظلمـة" عـام 2009 تضمـن وصفًـا وشـرحًا لهـذه العلاقـة غيـر العاديـة وكشـف عـن السـبب الحقيقـي الـذي يكمن وراء بـوش ونظـام الجزائـر فـي احتياجهـم للمزيـد مـن الإرهـاب فـي هـذه

المنطقـة. إن الجزائرييـن يحتاجـون إلـى إرهـاب أكثـر لتبريـر حاجتهـم للأسـلحة الحديثـة والأكثـر تطـورًا، فـي حيـن أن إدارة بـوش تنظر إلـى تطور هـذا الإرهاب باعتبـاره مبـررًا شـرعيًا لإنشـاء جبهـة صحراويـة جديدة فـي الحـرب العالمية ضد الإرهاب.

إن هـذا مـا يبـرر زيـادة العسـكرية الأمريكيـة فـي أفريقيـا بحجـة تأميـن المـوارد الطبيعيـة فـي القـارة وخاصـة البتـرول. وقـد أدى ذلـك إلـى إنشـاء "الأفريكـوم" القيـادة المقاتلـة للولايـات المتحـدة فـي أفريقيا. وبـدأت العمليات الجزائريـة الأمريكيـة تحت الشـعار المزيف ضـد الإرهاب في الصحراء والسـاحل فـي عـام 2003، عندمـا قامـت جماعـة انـدس فيهـا رجـال المخابـرات الجزائريـة بخطـف 32 سـائحًا أوروبيًـا مـن صحراء الجزائـر، وأعلنت إدارة بوش فـورًا أن أحد رجـال (البـارا) الجماعـة الخاطفـة الإرهابيـة هـو ابـن لادن الصحـراء.

إن حكومـة الولايـات المتحـدة لهـا تاريـخ طويـل فـي اسـتخدام الرايـات المزيفـة تبـرر تدخلهـا العسـكري، وما حـدث عـام 2003 المذكور يمكـن إرجاعه إلـى مـا يماثلـه مـا صنعتـه الولايـات المتحـدة قبـل أربعيـن سـنة.

ففـي عـام 1961 حدثـت مأسـاة خليـج الخنازيـر عندمـا دربـت المخابـرات الأمريكيـة قـوة مـن المنفييـن مـن كوبـا مدعومـة مـن القـوات

المسـلحة الأمريكيـة لتحـاول محاولة فاشـلة غـزو كوبا والإطاحة بفيديل كاسـترو. ووضعـت وزارة الدفاع الأمريكية وقيادة الأركان خططهم لتبرر الهجوم العسـكري الأمريكـي علـى كوبـا. وعرضـت الخطـة على روبـرت ماكنامـارا وزير الدفـاع أثناء رئاسـة جـون كينـدي فـي 13 مـارس 1962 بعنـوان «مبـررات الولايـات المتحـدة للتدخـل فـي كوبـا - سـري للغايـة، واسـتدعى هـذا مـن المخابـرات الأمريكيـة وأجهـزة أخـرى ارتـكاب عدد مـن الكوارث. وقـد ذكر الصحفـي الأمريكي "جيمس بـام فـورد" أن المدنييـن الأبريـاء ألقـى عليهـم الرصـاص فـي الطـرق الأمريكيـة وزوارق كانـت تحمـل مهاجريـن من كوبـا أغرقت في البحر كموجـة من الإرهاب والعنـف، وهـذه السياسـة التـي رسـمتها قيـادة الجيـش فـي الولايـات المتحـدة لإحـداث تغييـرات نسـبت إلـى فيديل كاسـترو لتبرر للـرأي العام العالمـي والرأي العـام الداخلـي أي هجـوم تشـنه الولايات المتحـدة على كوبا. وقـد رفض الرئيس كينـدي هـذه السياسـة ولكنهـا بقيـت حتـى تكشـفت من سـجلات الأرشـيف عام 2001، والرئيـس كينـدي كانـت رئاسـته أقصـر رئاسـة فـي الولايـات المتحـدة لأنه اغتيـل بعـد ثـلاث سـنوات مـن حكمه ثـم اغتيـل قاتله قبـل محاكمته، ولما رشـح أخـوه بعـد ذلـك بعدة سـنوات اغتيـل هو الآخـر قبـل الانتخابات.

وفي عام 2002 وُضعت خطة ليست بعيدة عن الخطة السابقة أمام وزير الدفاع الأمريكي رونالد رامسفيلد ومجلس الخبراء العلمي للدفاع. وهذه الخطة اقترحت عديدًا من العمليات المسبقة التي تُصطنع قبل التدخل في أي شأن تستوجبه سياستها قبل حصول التدخل. وثمة مجموعات منظمة تقوم بهذه المهام السرية لإثارة رد الفعل بين الجماعات الإرهابية واستفزازهم وتدفعهم إلى اللجوء لأعمال العنف التي تكتشف بعد ذلك لتبرير التدخل بقوات أمريكية.

إن عملية خطف السياح الأوروبيين عام 2003 تمثل شهادة لما تلاه من عمليات، وأن جبهة صحراء الساحل ليست هي الحالة الوحيدة لهذه الأحداث المصطنعة في الحرب العالمية على الإرهاب. ففي مايو عام 2008 طلب الرئيس الأمريكي جورج بوش 400 مليون دولارًا لتمويل الجماعات الإرهابية على طول منطقة الشرق الأوسط وأفغانستان وذلك في هجوم خفي موجه أساسًا ضد حكومة إيران. وقد وافق الكونجرس على طلبه في حدود 300 مليون دولارًا.

ومنذ عملية اختطاف الأوروبيين عام 2003، فإن المخابرات الجزائرية مع الولايات المتحدة ومع أجهزة المخابرات الغربية الأخرى استحدثت كلها القاعدة في المغرب الإسلامي لخلق سيناريو

إرهابـي، وأن كثيـرًا مـن مجـالات الإرهـاب التـي رسـمتها الجزائـر والحلفـاء الغربييـن فـي منطقـة الصحـراء والسـاحل كانـت مزيفـة، وأن كل مـا يثـار أنـه إرهـاب خـلال العقـد الأخيـر القليـل منـه أحـداث حقيقيـة والغالبيـة العظمـى صممـت بواسـطة مخابـرات الجزائـر. وإن بعـض الأحـداث مثـل هجـوم القاعـدة فـي المغـرب الإسـلامي علـى مطـار فـي الجزائـر عـام 2007 لـم يحـدث، ومـا حـدث فعـلًا أن المظاهـرات التـي قامـت ضـد الإدارة الجزائريـة احتجاجًـا علـى البطالـة بواسـطة شـباب الطـوارق المحلييـن انتهـت بإطـلاق الشـباب بعـض الأعيـرة الناريـة علـى المطـار، ولـم يكـن لهـذا الأمـر أي علاقـة بالقاعـدة فـي المغـرب الإسـلامي.

كمـا أن حكومـات مالـي والنيجـر والجزائـر هـي المسـئولة عـن الأحـداث الخمسـة التـي وقعـت فـي أراضيهـا منـذ عـام 2004 لاسـتفزاز الطـوارق لحمـل السـلاح وهـي أحداث النيجـر عام 2004، وفـي تمنراسـت TAMNARASSET عام 2005 فـي الجزائـر، وفـي مالي عـام 2006، وفـي النيجر ومالي عـام 2007. وعلى سـبيل المثال في يوليو 2005 أضرب شـباب الطوارق في جنوب مدينة تمنراسـت فـي الجزائـر وأحرقـوا نحـو 40 مبنـىً حكوميًـا وتجاريًـا، وثبـت فـي تحقيقـات المحاكـم أن المضربيـن كان يقودهـم وكلاء جزائريـون بالتحريـض، وقـد تبـرىء

نحو 80 شابًا وعضوًا.

ولكن الهدف من العملية كان قد أُنجز. وحلفاء المخابرات الجزائريون في واشنطن صاروا قادرين على الحديث عن العمليات الإرهابية بين الطوارق في تمنراست، ومن ثم قدموا مبررًا كافيًا لحكومة جورج بوش عن خطة مواجهة الإرهاب عبر الصحراء، وكذلك لخطط البنتاجون. وأن الوقت الذي جرى فيه حادثة خطف الأوروبيين عام 2003 فإن البنتاجون أعد مجموعة من الخرائط الأفريقية تصور أغلب منطقة الصحراء باعتبارها منطقة إرهاب أو ممر إرهاب ويجب التعامل معها على هذا الوضع.

وفضلًا عن ذلك فإن هذه المنطقة صارت أحد المناطق العالمية الأساسية لتداول المخدرات وتجارة الكوكايين الآتي من أمريكا الجنوبية إلى أوروبا من خلال الأزواد. وقدر مكتب الأمم المتحدة لمحاربة المخدرات أن 60 % من الكوكايين الذاهب إلى أوروبا يمر في هذه المنطقة.

والحقيقة أن أثر الإرهاب على الشعوب في منطقة صحراء الساحل كان أثرًا مدمرًا بالنسبة للاقتصاد وغيره، وقد أدى اختطاف ستين شخصًا من الغربيين أدى إلى انهيار السياحة التي كانت جماعات

الطوارق في مالي والنيجر والجزائر يحصلون على دخولهم منها. ومثلًا فإن قتل أربعة سياح فرنسيين في موريتانيا فضلًا عمن اختطفوا أنتج أن نحو 173 سائحًا فقط زار موريتانيا عام 2011 مقارنة بعدد 72500 شخصًا عام 2007، إن فقدان السياحة جرد الإقليم من عشرات الملايين من الدولارات وألجأ الطوارق وغيرهم وخاصة الشباب منهم إلى أنشطة الجريمة وغيرها.

من كل ما سبق يصير واضحًا أن تمرد الطوارق الأخير في مالي في يناير 2012 له خلفيات مركبة كثيرة تفضي إلى النجاح في السيطرة على شمال مالي. وأن قيام حركة التمرد الوطني لتحرير أزواد MNLA في أكتوبر 2011 يبدو أنها فاجأت حكومة الجزائر، فالجزائر دائمًا لديها تخوف من الطوارق سواء في داخل الجزائر أو في أقطار الساحل المجاورة، ونجاح حركة الطوارق الوطنية في شمال مالي الذي تعتبرها الجزائر الساحة الخلفية لها يصعب قبولها.

إن اصطناع الإرهاب وإدارته في مناطق الصحراء والساحل بواسطة المخابرات الجزائرية وبمعرفة الولايات المتحدة والقوى الغربية سينتج حتمًا نتائج كارثية.

وفي الختام إن الخيارات السياسية فيما يتعلق بإقليم أزواد تنحصر

في خيارين: إما التشبث بالسيادة على الإقليم من خلال حقائق الجغرافيا الموروثة من المحتل الفرنسي والاعتماد في ذلك على موقف الاتحاد الفرنسي ودول الجوار التي تتخوف من انتقال الانفصال إليها خصوصًا النيجر والجزائر وموريتانيا، وأن تتقدم الحكومة المالية بطرح مبادرة سياسية تهدف إلى منح حكم ذاتي ذو صلاحيات واسعة في الإقليم في إطار اتحاد كونفدرالي. وهذا سيكون حلًا جذريًا لمشكلات الإقليم الذي يشكل تهديدًا للأمن الإقليمي والعالمي نظرًا للنشاط الواسع لما يسميه الأوروبيون الخطر الإسلامي، وإما أن تتعامل الحكومة المالية بعنف خارج إطار القانون مع هذه الجماعات وتوسيع دائرة الاشتباه وإطلاق يد الأجهزة الأمنية مع المشتبه فيهم وغيرهم وهذا يصب في صالح هذه الجماعات ويطيل أمد المواجهة.

ويقول الباحث الإعلامي الموريتاني محمد العابد في تحليله هذا أن مخاطر الصوملة في المغرب الإسلامي تدفع العديد من الإدارات الإقليمية والدولية إلى حرب قادمة تريدها مالي حربًا للحفاظ على وحدة أراضيها، وتريدها موريتانيا وفرنسا حربًا لتصفية القاعدة في الإقليم، وتريدها أطراف أخرى حربًا للسيطرة على الموارد الطبيعية الممتدة على طول حوالي خمسة ملايين كيلو مترًا مربعًا، ويشكل

الموقـع الاسـتراتيجي للإقليـم التنافـس بيـن القوى التـي تبحث عـن موطىء قدم يمكنهـا مـن دخول هـذه المنطقة.

ولعـل مـن أبـرز المخاطر المتوقعـة أن الحرب في الإقليم سـتتحول بسـرعة إلـى صراعـات قبليـة وعرقية أكثر من كونهـا صراعًا أيديولوجيًا ضـد خطر القاعدة أو ما تسـميه فرنسـا "الخطر الإسـلامي"، فالميليشـيات الآن ترفع شـعارات فكرية وسياسـية ولكنهـا فـي عمقهـا تتأسـس على قبائـل ومجموعـات عرقيـة كالطوارق والعـرب والصنغـى والفولانـي، وأي صراع يندفع سـيكون مصيره فـي النهاية حربًا قبليـة تلبـس ثوبًـا أيديولوجيًـا.. ومـن هنـا سـتكون الحـرب فـي عمقهـا حربًا بين القبائـل والأعـراق، وهنا مكمـن الخطر.

***

المبحث الثاني:

(نيجـــيريا)

الحالة النيجيرية

إن الأوضاع الأمنية في دول الصحراء الأفريقية في حالة من الاضطراب تنذر بخطر الفوضى واشتعال العنف في ذات الوقت. ودولة نيجيريا أبرز مثل على ذلك، فقد سقطت في دائرة العنف وأصبح الخروج منه يحتاج إلى تفهم للأوضاع المتردية وأسبابها بشكل موضوعي وليس بمبالغات إعلامية.

وهذا البحث هو محاولة لدراسة الحالة النيجيرية التي أدت إلى ظهور جماعات العنف، ثم ما الذي تفعله نيجيريا لتواجه هذه الجماعات الإرهابية؟. إن الحالة النيجيرية لها جذور تاريخية قديمة، لذلك قسمت هذا البحث إلى أربعة أقسام. أولها: مدخل، وثانيها: جماعات العنف ونظرية المؤامرة، وثالثها: الاستعمار الجديد يدفع إلى العنف، وأخيرًا مقترحات للخروج من دائرة العنف.

أولًا: مدخـــــل

مع بداية الألفية الثالثة بدأنا نسمع عن التطرف الإسلامي، بدأ

بحادث تدمير برجي التجارة العالمية في أمريكا، تبعه غزو أمريكا لأفغانستان بعد ظهور ابن لادن وحركة طالبان، ثم اختفى ابن لادن من الإعلام العالمي وظهرت جماعة القاعدة التي أصبح اسمها يطلق على أي حركة إسلامية معارضة لنظمها، وأصبح أي تنظيم يدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية منظمة إرهابية إذا كانت تمسك السلاح، أو منظمة متخلفة إذا كانت تدعو للشريعة بالطريق السلمي.

وفي أفريقيا شهد العقد الماضي ظهور ملفات لتلك الجماعات، وأصبح المشهد السياسي في الصحراء الكبرى يعج بمنظمات الإرهاب والتطرف ترتبط بالفكر الأصولي السلفي الجامد مثل أزواد في مالي، القاعدة في النيجر ومالي والسنغال وجنوب الجزائر، وسيلكا في أفريقيا الوسطى، وبوكوحرام في نيجيريا.

وأدى سقوط معمر القذافي إلى توافر كميات السلاح والأموال الهائلة المهربة من ليبيا حتى بات يصعب احتواء تنظيمات الاقتتال في الصحراء الكبرى، واستخدم التمرد الديني وغيره في مواجهة الموجة الاستعمارية الجديدة في أفريقيا. وإلى جانب ذلك وجدت شبكات المخدرات والهيروين العالمية القادمة من كولومبيا ودول أمريكا اللاتينية المعروفة بهذه التجارة لتعبر الصحراء الكبرى إلى الشرق

الأوسط حتى باتت مسألة الإرهاب مسألة غير محلية.

يضاف إلى كل هذا الدافع الأساسي وهو التنافس على المصالح البترولية والتعدينية في الصحراء الكبرى، وبمناطق اليورانيوم في النيجر والماس والذهب في أفريقيا الوسطى والبترول في نيجيريا.

وفي خضم هذا المشهد المعقد لابد أن نفرق بين متمردي الجماعات حديثة التكوين التي تنشط بأسلوب حرب العصابات على مستوى الساحة الصحراوية وبين حركة تحرير وطنية مثل الأزواد في مالي أو الطوارق الذين يطالبون بحق تقرير المصير والحكم الذاتي لشعب الطوارق، وحركة بوكوحرام السلفية في نيجيريا التي بدأت سلمية ثم تحولت إلى العنف عندما وجدت الفساد والظلم يسود مجتمعها.

والسؤال ما الذي يجب أن تفعله القارة الأفريقية لتقاوم هذه الجماعات الإرهابية وبالذات بوكوحرام في نيجيريا؟

في البداية أود أن أشير بشكل سريع إلى المنطقة الأفريقية التي تنشط فيها بوكوحرام وغيرها من الجماعات المتطرفة حتى تتضح الصورة الإسلامية في هذه المنطقة الأفريقية الإسلامية وهي الغرب الأفريقي أو المغرب الإسلامي.

أن الإسلام والحركات الجهادية في نيجيريا ليست بالأمر الجديد عليها أو الوافد إليها، ومن يطالع تاريخ أفريقيا يجد أن الحركات الجهادية في نيجيريا هي من قاومت ببسالة المستعمرين الأوروبيين طوال القرن 19.

وتاريخ الحركات الأصولية في نيجيريا التي تتهم الآن بالتخلف والإرهاب كان لها شأن كبير في الماضي ولعبت دورًا كبيرًا في مقاومة غزو المحتلين على مدى قرن من الزمان.

ولكي نفهم الخلفية الإسلامية في نيجيريا وما جاورها من الدول لابد من الإشارة إلى دور الطرق الصوفية والزوايا التي أنشأها زعماؤها وكانت بمثابة ركائز لنشر الإسلام ثم حائط صد ضد المستعمر الأجنبي.

أن الطرق الصوفية هى بلا شك ذات أصول وتوجهات دينية، ولكنها كانت أيضًا سياسية في وظيفتها، كانت هذه الطرق دائمًا منظمات دفاعية تقف في وجه الأخطار المحدقة من الخارج. وعندما كانت الدولة قوية كانت الطرق الصوفية جزءًا من أجهزة الدولة، أما في حالات ضعف الدولة نفسها وتفككها فإنها كانت تستقل بنفسها وتأخذ زمام المبادرة بيدها، فمثلًا عندما تخلت الأستانة عن سيادتها بالنسبة لليبيا صارت الطريقة السنوسية نواة مقاومة الغزو الإيطالي في برقة، وعندما أصبحت الدولة المغربية عاجزة عن التصرف قامت الطريقة القادرية باستنفار

القوى المعادية للغزو الفرنسي. وكانت الطرق الصوفية ترفض كل اتصال بالسلطات الاستعمارية رغم كل المغريات، فإذا ما انتهى الأمر باستلامها لم يبق أمامها إلا سبيل واحد وهو أن تمارس رد الفعل إزاء السياسة الاستعمارية، وهذا ما يضفي عليها طابع العنف.

* * *

من الصعب تحديد متى بدأ الإسلام ينتشر في غرب أفريقيا، ولكن يمكن تقسيم توغل النفوذ الإسلامي في غرب أفريقيا إلى ثلاث مراحل، الأولى: يغلب عليها الاحتكاك السلمي وكان التجار والبربر دعامته، والمرحلة الثانية: يغلب عليها جهاد المرابطين الذين أعطوا الإسلام بعدًا ثقافيًا واقتصاديًا وسندًا سياسيًا، وتجمع المرحلة الثالثة بين السلم والحرب. وفي هذه المرحلة انتقلت الزعامة الدينية والقيادة السياسية والاقتصادية والريادة الثقافية إلى السكان الوطنيين من السود بعد أن تشبعوا بروح الإسلام، واقترنت المرحلة الأخيرة أيضًا بقيام عدد من الممالك الإسلامية الزنجية التى تعاقبت على حكم المنطقة هي مملكة مالي وصنغى وإمارات الهوسا في نيجيريا. وقد لعبت هذه الدول الإسلامية دورًا كبيرًا غطت به أجزاء واسعة في بلاد غرب أفريقيا في تاريخها الوسيط

والحديث بدءًا بدولة غانا القديمة (وهي غير غانا الحالية) ثم مالي وصنغى وكانم وبرنو في العصور الوسطى، ودولة عثمان بن فودى في نيجيريا في العصر الحديث.

وينبغي أن نشير أن الصحراء الكبرى لم تكن حائلًا دون انتشار الإسلام وانتقال المؤثرات العربية الإسلامية إلى غرب أفريقيا، وينبغي أيضًا أن نشير أن العلاقات الإسلامية العربية الأفريقية لم تؤد إلى ما أحدثته الثقافة الأوروبية عندما وصلت أفريقيا ولم تظل العربية مغتربة مثلما ظلت الفرنسية والإنجليزية ومختلف اللغات الأوروبية في مستعمراتها بل إن الثقافة الأفريقية ظهرت بإنتاج العلماء والفقهاء باللغة والأحرف العربية. ومن الناحية السياسية فإن علاقات العرب والمسلمين بأفريقيا أو الحضور العربي في أفريقيا لم يؤد إلى سقوط النظم التقليدية في المجتمعات الأفريقية كما حدث مع الحضور الأوروبي.

مما تقدم نجد أن أفريقيا تعرضت منذ العصور الوسطى لظهور إسلامي أو فتوحات إسلامية أو حركات جهادية كما يطلق عليها أدى إلى ظهور عدة ممالك إسلامية عاصرت بعضها البعض، وتبوأت هذه الممالك السيادة والشهرة والنفوذ. ولكن كتب على ممالك هذه

المنطقـة أن تتعـرض لغزوين مدمريـن رغم النضال البطولي الذي أبدته شـعوبها، الغـزو الأول هـو الغـزو المراكشـي فـي القـرن 16، والثانـي الغـزو الأوروبـي فـي القرن 19.

ولمـا قامـت دولـة المرابطين في المغـرب زحف دعاتها جنوبًا إلى السـنغال حيـث تمكـن زعيمهـا الروحـي عبـد اللـه بن ياسـين مـن تكويـن نـواة المرابطين فـي جزيـرة صغيرة عند نهر السـنغال على سـاحل المحيط الأطلسـي وكانت هذه الجزيـرة حجـر الأسـاس لقيـام دولـة المرابطيـن التـي امتـدت مـن السـنغال إلـى غينيـا حتـى سـاحل العاج والنيجـر ودخلـوا إمبراطورية غانـا الوثنيـة القديمة في النصـف الثانـي مـن القـرن الحـادي عشـر وفتحوها وصـارت إمبراطورية إسـلامية حتـى انتهـت فـي القـرن 13 وقامت علـى آثارهـا إمبراطوريـة مالي الإسـلامية ثم دولـة الصنغـى الإسـلامية التـي قضـى عليها الغـزو المغربـي في أواخـر القرن 16.

بعـد تفـكك دولـة الصنغـى سـاد منطقـة السـودان الغربـي أو الغـرب الأفريقـي فتـرة مـن الفوضـى اسـتمرت حوالـي قرنيـن حتـى نهـض شـعب الفولانـي وقـام بثورتـه الكبـرى مـع بدايـة القـرن 19 بزعامـة الشـيخ عثمـان بـن فـودى، وعرفـت حركتـه بحركـة التجديـد الإسـلامي لتصحيـح الإسـلام الـذي امتـزج بالتقاليـد الوثنيـة وصـارت ثورتـه جهـادًا انتشـر فـي كل أنحـاء

الهوسا (نيجيريا الشمالية).

والشيخ عثمان بن فودى ولد عام 1754 في ولاية سكوتو من أبناء قبيلة الفولاني المنتشرة في شمال نيجيريا وهو يعتبر أول داعية في أفريقيا قام بتغيير المنكر في الدين بالسلاح وأقام دولة تحكم بكتاب الله والسنة على نمط الحكومات الإسلامية الأولى في صدر الإسلام، واستمرت دولته التي خلفه فيها أبناؤه تحكم بلاد الهوسا قرنًا من الزمان من 1804 إلى 1904.

في مطلع القرن 19 بالتحديد عام 1804 بدأت الثورة الفودية التي حملت اسمه وتوجت ثورته بإقامة الخلافة الإسلامية في سكوتو وألقت بظلالها على معظم الغرب الأفريقي حتى السودان الشرقي الذي شهد الثورة المهدية فيما بعد.

تأسست إمارات الدولة الفولانية بنيجيريا الشمالية على النهج الإسلامي وعاشت طوال القرن 19 في حملات جهاد مستمرة. وكانت الفترة الممتدة من 1800 – 1900 هي الفترة التي بلغ فيها الغزو والاحتلال الأوروبي لغرب أفريقيا مداه. فلم يحدث من قبل على مر التاريخ المعروف للقارة أن شهدت مثل هذا النشاط العسكري من الغزوات والحملات ضد الدول والمجتمعات الأفريقية. وانبرت

حمـلات الجهاد الإسـلامي الأفريقية الوطنيـة تصارع المسـتعمرين الأوروبيين من جهـة والأهالـي الوثنييـن مـن جهـة أخـرى، وكانـت على دراسـة بخطـط المناطق التـي يعلنـون فيهـا حـروب الجهاد وبعبـارة أخرى عـرف المسـلمون الأفارقة نظم الحـرب لـدى القبائـل التي يشـنون عليها حروبهم، واسـتمرت هـذه الحروب حتى وضعـت قـرارات مؤتمـر برليـن 1884 - 1885 التـي مزقـت القاهـرة وقطعتهـا شـلوا شـلوا ووضعـت نيجيريـا ضمـن مناطـق النفـوذ البريطانـي، ولكـن اسـتمر جهـاد الهوسـا (قبائـل شـمال نيجيريـا) ضـد البريطانيين إلـى أن سـقطت الخلافة الإسـلامية فـي شـمال نيجيريا عـام 1904.

ولمـا سـقطت نيجيريا ودخلت فـي ظل الحكم البريطاني عجـز البريطانيون عـن تغييـر النظـم الإسـلامية التـي ترسـخت فـي النفـوذ ومارسـها الشـعب طـوال قـرن، ولـم يجـد البريطانيـون بديـلًا أفضـل مـن تلـك النظـم الأفريقيـة القائمـة فتركوهـا وأبقـوا عليهـا. ومـازال المسـلمون في نيجيريا يشـكلون أغلبية السـكان، ومازالـت نيجيريـا حتـى الآن أكبـر دولـة إسـلامية في غـرب أفريقيا بل فـي القارة الأفريقيـة كلها.

إن الحقيقـة التـي لا يمكـن إنكارهـا أن حركـة الجهـاد الإسـلامي فـي غـرب أفريقيـا رفضـت الخضـوع للقـوة الأوروبيـة المحتلـة، وكانـت السـمة

الغالبـة علـى زعمائها الصوفيـة والجهاد والاستشـهاد والمقاومة حتـى آخر لحظة، فليـس مـن الغريب أن تظهر فـي نيجيريا اليوم حركة إسـلامية كحركة بوكوحرام - التـي بـدأت سـلمية ثم تحولـت إلى العنف المفـرط تدعو إلى: تطبيق الشـريعة الإسـلامية وأن يتحقـق للمسـلمين هنـاك وجـود فعلـي علـى الخريطـة السياسـية للدولـة بحكـم أغلبيتهـم السـكانية وأن يكونـوا محـل اعتبـار عنـد اتخـاذ قـرارات تتعلـق بشـئونهم.. أليـس مـن المفارقـات أن مسـلمي نيجيريـا تمتعـوا بحقوقهم الإسـلامية فـي عهـد الاسـتعمار البريطانـي وفقدوهـا فـي ظـل الاسـتقلال والحكم الوطني.

***

ثانيًا: جماعات العنف ونظرية المؤامرة

قبل 11 سبتمبر 2001 لم نكن نسمع عن التنظيمات الإرهابية ولا الجماعات الأصولية الإسلامية المتشددة في دول الصحراء الكبرى في الغرب الأفريقي، حقيقة كانت توجد جماعات معارضة وحركات مناوئة لحكمها وكانت تحدث انقلابات دامية أو تقوم صراعات قبلية عنيفة فيها ولكنها كانت تجرى بعيدة عن العقائد الدينية ولم يُتّهم الإسلام بالتعصب أو التطرف.

وبعد ثلاثة أيام فقط بعد حادث سبتمبر بدأنا نسمع عن الإرهاب الإسلامي، وبدأ التحرك الأمريكي ينبري لمكافحته حيث طلبت واشنطن من الدول الأفريقية تأييد الحرب على الإرهاب من خلال التعاون مع وكالة الاستخبارات الأمريكية الموفدة إلى الدول الأفريقية والتعاون في القبضS على المشتبه فيهم وتسليمهم للولايات المتحدة، وسمعنا عن تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي وعن الطوارق

والأزواد في مالي، وسيلكا في أفريقيا الوسطى، والأصوليون في الجزائر، وبوكوحرام في نيجيريا وهروب بعض أعضاء هذه الجماعات إلى تشاد والكاميرون وممارسة نشاطهم هناك.

فجأة أصبحت منطقة الصحراء الكبرى منطقة خطرة يجب التدخل فيها حتى لا تصبح بؤرة للإرهاب الدولي، ومع تسليمنا بأن هذه الجماعات باتت تهدد نظمها وأمن مواطنيها فيجب ألا ننسى أن أغلبها بدأت جماعات سلمية ثم تحولت إلى العنف بعد ما لاقته من اضطهاد وإبادة لعناصرها ومن يؤيدها، ونشير إلى هذه الحركات بشكل سريع.

الأزواد في مالي: هم من قبائل الطوارق أو أمازيغ الصحراء ويلقبون أحيانًا بالرجال الزرق، وهم شعب رحل يعيشون في الصحراء الكبرى خاصة في صحراء الجزائر والنيجر وليبيا وبوركينافاسو ومالي، وهم يحاولون منذ خمسة عقود تأسيس دولة في مناطق وجودهم دون أن ينجحوا في ذلك. وأخيرًا في نوفمبر سنة 2010 أعلن الطوارق عن تأسيس الحركة الوطنية لتحرير أزواد وهي حركة عسكرية سياسية أسست في إقليم أزواد في شمال مالي وتسعى الحركة لإقامة دول أزواد المستقلة وجاء في بيان تأسيسها "أن التحديات التي يواجهها

إقليم أزواد منذ أكثر من خمسين سنة والمأساة التي يتعرض لها الشعب الأزوادي بمباركة ودعم من الدولة المالية، وتحت مسمى مكافحة الإرهاب، كل ذلك أصبحت معه منطقة الأزواد منطقة نهبٍ لتدخلات إقليمية ودولية ولنشاط الشركات العالمية المتعاقدة مع الحكومة دون أن يُعرف شيئٌ عن طبيعة هذه العقود في ظل غياب كلي لأي تمثيل للأزواد وما يجري على أرضهم، ودفاعًا عن الهوية الوطنية الأزوادية المهددة بالضياع واستمرارًا لنضال الآباء والأجداد والتزامًا بالقيم الإنسانية العالمية فإننا نعلن عن تأسيس الحركة الوطنية الأزوادية وهي تنظيم سياسي يمثل النهج السلمي للوصول إلى الأهداف المشروعة واسترجاع الحقوق التاريخية المغتصبة، والحركة تتبنى نهج العمل السياسي والقانوني وتنبذ العنف وتدين الإرهاب بكل أشكاله سواء كان إرهاب الدولة أو إرهاب جماعات وأفراد. مع حرصها على ضرورة التمييز بين الإرهاب والمقاومة المشروعة».

وبعد سقوط القذافي عاد آلاف الطوارق الذين كانوا يقاتلون ضمن جيش القذافي إلى شمال مالي مدججين بالسلاح لينضموا إلى حركة أزواد. وفي يناير سنة2012 بدأت الحركة هجومًا على مدن شمال شرق مالي قرب الحدود مع الجزائر، وأعلنت الحركة في أبريل سنة

2012 استقلال أزواد وقوبل الإعلان بالرفض الإقليمي والدولي.

اندلعت المواجهات بين أزواد والحركات الإسلامية التي ظهرت على الساحة وهي حركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا وحركة أنصار الدين وبين جيش مالي مما أدى إلى وقوع مجزرة راح ضحيتها العديد من القتلى بين الطرفين، وسادت حالة من الفوضى ودخلت البلاد في أزمة سياسية عسكرية استمرت 18 شهرًا، وفي هذه الآونة برزت جماعات إسلامية متطرفة تتبع تنظيم القاعدة في المغرب الإسلامي مما أدى إلى تدخل فرنسا عسكريًا في يناير سنة 2013.

لم يقض التدخل الفرنسي على حركات المقاومة في مالي بل ظهرت في ظله مجموعات أخرى في الشمال من بينها اللجنة العليا لوحدة أزواد العربية وحركة أزواد العربية المنشقة والجماعات التنسيقية من أجل شعب أزواد وتنسيقية الحركات والجبهة القومية للمقاومة إلى جانب حركة "إيمغاد" الموالية للحكومة المالية.

القاعدة أو تنظيم الجهاد: هي حركة متعددة الجنسيات إسلامية سنية سلفية أصولية تأسست ما بين أغسطس 1988 وأوائل 1990 تدعو إلى الجهاد الدولي لإنهاء النفوذ الأجنبي في البلدان الإسلامية وإنشاء خلافة إسلامية.

وقد شاركت القاعدة في عدد من التفجيرات شمال أفريقيا، وفي يناير 2007 تحولت "الجماعة السلفية للدعوة إلى القتال" إلى فرع من تنظيم القاعدة في منطقة شمال المغرب لتحمل اسم "القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي".

حركة الإصلاح والجماعات الأصولية في النيجر: تعود الأوضاع السائدة في شمال شرق نيجيريا بعواقب وخيمة على المنطقة الشرقية للنيجر، وهي المنطقة المتاخمة لنيجيريا الواقعة في أقصى جنوب شرق النيجر، ومنذ اندلاع الاضطرابات في نيجيريا وتقع اشتباكات ومواجهات بين القوات المسلحة النيجيرية وبعض الأفراد المسلحين النشطين في تلك المنطقة.

والنيجر دولة مسلمة تحدها من الجنوب نيجيريا وبنين ومن الغرب بوركينا فاسو ومالى ومن الشمال الجزائر وليبيا ومن الشرق تشاد، وهي تعاني من جماعات العنف التي يحاصرها غربًا في مالي من الحركات الإسلامية المتطرفة التي أبرزها حركة التوحيد والجهاد، وجنوبًا جماعة بوكوحرام الأصولية المتشددة في نيجيريا، وقد استباح الطرفان ساحة النيجر وانتهكا حرمة أراضيه وباتا يشكلان خطرًا على أمنها حتى لجأت حكومتها إلى الغرب والاستقواء به، وبناء على

طلبها أرسل الاتحاد الأوروبي بعثة تعرف باسم "أوكاب ساحل النيجر" تعمل على تعزيز قدرات قوات الأمن النيجيرية في مكافحة الإرهاب في إطار سياسة الأمن والدفاع المشترك للاتحاد الأوروبي، وجاء هذا الحراك الأوروبي إثر طلب الحكومة النيجيرية للدعوة إلى تدخل عسكري دولي لمواجهة التهديد الأمني الذي تواجهه بعد أن تحوّل طول الحدود مع مالي وشمال نيجيريا إلى ساحة حرب على الإرهاب، وأبدت واشنطن وحلفاؤها قلقًا متزايدًا إزاء الوضع في النيجر التي يمكن أن تصبح ملاذًا جيدًا للجهاديين من أنحاء العالم. وتنجز البعثة مهامها داخل الأراضي النيجيرية أولًا وقد تتسع لتشمل مالي وموريتانيا لاحقًا.

سيليكا في أفريقيا الوسطى: سيليكا هي جماعة مقاتلة في جمهورية أفريقيا الوسطى تأسست عام 2012 من مجموعة مسلمين ومسيحيين من المعارضة المسلحة ضد فساد السلطة الذي أدى إلى تمرد علني خلال الحرب الأهلية بين أعوام 2004 - 2007، وتجدد النزاع في أعوام 2012، 2013 نتيجة الانقلاب والفوضى التي شهدتها البلاد أدى في النهاية إلى الإطاحة بالنظام واستولت سيليكا على السلطة في مارس 2013 بعد دحرها للقوات الحكومية ولكن

في يناير سنة 2014 أجبرت سيليكا على التنحي عن السلطة تحت ضغوط دولية، وما أن أطيح بها حتى دخلت البلاد في حرب عرقية بين المسلمين والمسيحيين الذين كونوا تنظيم "بالاكا"، وقامت القوات الفرنسية بالتعاون مع قوات حفظ السلام الأفريقية بنزع سلاح أكثر من سبعة آلاف من مقاتلي سيليكا بعد أن قامت الحكومة بحل قوات سيليكا ووضعتهم في ثكنات وهو إجراء أغضب المسلمين باعتبار أن هذه القوات كانت تمثل لهم شيئًا من الحماية في مواجهة الميليشيات المسيحية، لذلك نظم المسلمون احتجاجات في شوارع العاصمة منددين بالانحياز لصالح المسيحيين وأقاموا المتاريس بالاطارات والحجارة احتجاجًا على انتشار القوات الفرنسية وقالوا إن هذا الأمر يترك المسلمين عزلًا بدون حماية ميليشيات "بالاكا".

نسبة المسلمين في أفريقيا الوسطى تقدر بعشرين في المائة والمسيحيين بما يقرب من خمسين في المائة، وتنحصر مطالب سيليكا "أن يكون للإسلام مكانة حقيقية بين الأديان المعترف بها في الدولة، وأن يحتفل رسميًا بعيدي الأضحى والفطر ويدرجانه ضمن أعياد الدولة الرسمية، وعدم التعرض أو اضطهاد المسلمين خصوصًا فيما يتعلق بالجنسية حيث أن الحصول على جواز سفر للمسلمين لم يكن متاحًا.

لـم تسـتجب الحكومـة لهذه المطالب ممـا أدخل البلاد في صـراع وتأججت شـرارة الاقتتـال بيـن المسـلمين والمسـيحيين فتدخلـت فرنسـا بقـوة عسـكرية بدعـوى حمايـة مصالـح الشـركات الفرنسـية العاملـة هنـاك، ومواجهـة النفـوذ الاقتصـادي الصينـي، والخـوف من تداعيـات الصراع على دول الجوار التي لفرنسـا مصالـح فيهـا وخاصـة تشـاد والكاميرون.

ووقعـت عمليـات تطهيـر عرقي ضد المدنيين المسـلمين فـي الجزء الغربي مـن البـلاد، وانتقـدت منظمـة العفو الدوليـة بـرودة المجتمع الدولـي تجاه هذه الأزمـة وأشـارت إلـى أن قـوات حفـظ السـلام الدوليـة امتنعـت عـن التصـدي لميليشـيات "بـالاكا" المسـيحية المدعومـة مـن فرنسـا، وأنهـا كانـت بطيئـة فـي حمايـة الأقليـة المسـلمة. وقـد فـر مـن البـلاد أكثـر مـن سـبعة آلاف شـخصًا إلى تشـاد المجـاورة، وأدانت وزارة الخارجيـة الأمريكية انتهاكات حقوق الإنسـان في أفريقيـا الوسـطى التـي تتمثـل فـي عمليـات الإعـدام خـارج نطـاق القضـاء علـى يـد قـوات الأمـن، والتعذيب والضـرب والاغتصـاب والاقتتال والاحتجاج التعسـفي والاحتجـاز دون محاكمـة لفتـرات طويلـة والحرمـان مـن المحاكمـة العادلـة، والقيـود المفروضة على حرية الحركة، والفسـاد الرسـمي وإهـدار حقوق العمال، وعنـف الغوغـاء علـى نطـاق واسـع مما يـؤدي أحيانًا إلـى الوفيـات، والتمييز ضد

المرأة والإتجار بالأشخاص والسخرة وعمالة الأطفال.

وقد دعا "قوى دافاني" زعيم متمردي حركة سيليكا السابق، دعا المسلمين والمسيحيين في جمهورية أفريقيا الوسطى إلى الكف عن مهاجمة بعضهم بعضًا مشددًا على أن البلاد تواجه خطر الاختفاء كهيكلية دولة إذا لم تتوخ الحذر وتدعم مهمات قوات حفظ السلام الدولية للمساعدة في استعادة الأمن، وألا يهاجم المسلمون المسيحيين والعكس وتجنب تحويل مشكلة سياسية إلى دينية، وناشد المسلمين الذين فروا من أعمال العنف العودة إلى البلاد حيث أراضيهم ومنازلهم لرفع الروح المعنوية لدى المواطنين.

بوكوحرام في نيجيريا: على أن أخطر هذه الجماعات الأصولية في الغرب الإسلامي الأفريقي جماعة بوكوحرام في نيجيريا التي أعلنت في 25 أغسطس 2014 أنها أقامت الخلافة الإسلامية واتخذت مقرها بلدة جوزا بولاية بورنو شمال شرق البلاد قرب الحدود مع الكاميرون.

وبوكوحرام "جماعة أهل السنة للدعوة للجهاد" هي جماعة إسلامية تنشط في شمال نيجيريا، وهي حركة محظورة رسميًا يعرف اسمها بلغة الهوسا بمعنى "التعليم الغربي حرام" القائد العام لها هو أبو

بكر شيكاو. وسميت الجماعة أيضًا "طالبان نيجيريا" لأنها تألفت من البداية من طلبة تخلوا عن الدراسة وأقاموا قاعدة لهم في قرية كاناما بولاية يوبي شمال شرقي البلاد على الحدود مع النيجر.

تأسست الجماعة عام 2002 في ولاية بورنو بشمال نيجيريا على يد مدرس رجل دين "محمد يوسف" ولكن الوجود الفعلي للحركة بدأ خلال عام 2004 بعد أن انتقلت إلى ولاية يوبي حيث بدأت عملياتها ضد المؤسسات الأمنية والمدنية النيجيرية.

ترجع أصول بوكوحرام إلى مجموعة من الشباب الإسلامي تجمعت في مسجد في ميدوجوري من نحو عقد من الزمان. وفي عام 2002 أطلقت المجموعة التي لم تكن عرفت بعد باسم بوكوحرام بيانًا جاء فيه "إن الإدارة المدنية والمؤسسة الإسلامية صارا غير محتملين وغير قابلين للإصلاح بسبب الفساد" وأعلنت أنها ستقوم بالهجرة أي الخروج واتباع سنة النبي محمد عليه الصلاة والسلام عندما ترك مكة إلى المدينة، وخرجت هذه المجموعة الشبابية من ميدوجوري إلى قرية تسمى "كاناما" بولاية يوبي YOBE STATE قرب حدود النيجر لتؤسس جماعة منفصلة تتبع بصرامة المبادىء الإسلامية، ودعا زعيمها محمد غيره من المسلمين للانضمام إلى جماعته والعودة إلى

نـوع مـن الحيـاة تحت حكم الإسـلام الحقيقي، بهـدف إعداد مجتمـع أكثر تكاملًا بعيـدًا عـن المؤسسـة الفاسـدة. وفـي ديسـمبر سـنة 2003 خاضـت المجموعـة صراعًـا مـع الشـرطة يتعلـق بنـزاع حـول حقـوق الصيـد فـي المناطـق المجـاورة، وترتـب علـى هـذا النـزاع محاصـرة الجيـش لهـم وسـقوط نحـو 70 عضـوًا مـن الجماعـة قتلـى بالرصـاص.

لفتـت الجماعـة الاهتمـام بنيجيريـا بسـبب الاسـم الذي انتشـر عليهـا محليًا وهـو "طالبـان النيجيريـة" رغـم أنـه لـم يعثـر علـى أي دليـل يؤكـد وجـود صلـة بيـن بوكوحـرام وحركـة طالبـان الأفغانيـة، كمـا جذبـت اهتمـام الإعـلام النيجيري لأن كثيـرًا مـن أعضـاء الجماعـة هـم أبنـاء وأشـخاص مـن ذوي النفـوذ والنخـب الموجـودة فـي شـمال نيجيريـا، ربمـا يكونـوا مـن دوائر أكثـر غنى فـي المجتمع النيجيـري وكان أحدهـم ابـن حاكـم ولايـة يوبي وهـو بوكارابا إبراهيم. وفي سـنة 2004 كشـفت برقيـة لحكومـة الولايـات المتحـدة أذاعتهـا ويكيلكـس أن سـفارة الولايـات المتحـدة فـي أبوجـا انتهـت إلـى أن المجموعـة لا تمثـل تهديـدًا دوليًـا وليـس لهـا ارتباطـات مـع منظمـات الجهـاد الدولية.

مـن بقـى حيًـا مـن طالبـان النيجيريـة عـادوا إلـى ميدوجـوري حيـث اسـتقروا مـع غيرهـم مـن المجموعـة الشـبابية التـي كان قائدهـم محمـد

يوسـف الـذي أنشـأ مسـجدًا خاصًـا وسـماه "مسـجد ابـن تيميـة". وقـد تركـت السـلطات الجماعـة لحالهـا فتوسـعت فـي المناطـق الأخـرى ومنهـا بوشـى فـي دولـة النيجـر.

ويـرى المراقبـون أن الجماعـة أنشـئت باعتبارهـا دولـة داخـل دولـة فلهـا مجلـس إدارة وشـرطة ومزرعـة كبيـرة. وقـد جذبـت أكثـر فأكثر مجموعـات كبيرة مـن النـاس تحـت سـقفها لتقديـم المسـاعدات والطعـام والمـأوى، وكثيـر ممـن جذبتهـم الجماعـة هـم مـن اللاجئيـن بسـبب الحـروب علـى الحـدود فـي تشـاد والعاطليـن عـن العمـل فـي نيجيريـا، وجماعـة قدمـت إليهـم مـن تشـاد، وعرف عـن هـؤلاء رفضهـم الاندمـاج مـع الأهالـي المحلييـن ورفضهـم التعليـم الغربـي والثقافـة الغربيـة، ومـن هنـا أطلـق عليهـم اسـم بوكوحـرام.

إن مصــدر الثــروة الماليــة للجماعــة فــي هــذه الفتــرة مــن وجودهــا ليــس واضحًــا، ويقــال إن محمــد يوســف حصــل علــى أمــوال مــن علاقتــه بالسـلفيين مـن المملكـة العربيـة السـعودية عبـر رحلتيـن للحـج قـام بهمـا، وثمـة مصـدر آخـر محتمـل للتمويـل فـي تلـك المرحلـة وهـي الهبـات التـي قدمهـا الأثريـاء فـي شـمال نيجيريـا. وفـي عـام 2006 قبضـت سـلطات أمـن الدولـة علـى رجـل أعمـال مـن الشـمال بعـد أن ذكـر مجموعـة مـن الأطفـال

أنهـم أرسـلوا بواسـطة الجماعـة للتدريب في معسـكر للقاعدة فـي موريتانيا وأن رجـل الأعمـال هـو مـن قـدم المسـاعدات الماليـة للجماعـة للصرف علـى هؤلاء، وقـد نفـى الرجـل هـذا الادعـاء وقـال: "إن مـا قدمـه كان مصروفًـا مـن مصـارف الـزكاة العاديـة التـي يلتـزم أثريـاء المسـلمين بتقديمهـا للخير".

وعشـية الانتخابـات الرئاسـية النيجيريـة عـام 2007 اغتيـل الشـيخ جعفـر محمـود آدم وهـو مـن رجـال الدين ذوي الشـعبية، وظلت عمليـة اغتياله غامضة بعـض الوقـت ثـم عرف أنهـا نفذت بأوامـر من محمد يوسـف بعدما أخذ الشـيخ جعفـر ينتقـد الجماعة بسـبب عقيدتها الجامـدة التي أدت إلى صـراع مع الدولة. ويـرى البعـض أن عمليـة الاغتيـال كانـت نقطة تحول مـن بوكوحرام لأنـه لم يعد مـن الممكـن إرجـاع يوسـف وأتباعـه إلـى التيـار الأساسـي للمؤسسـة الإسـلامية الشمالية.

وفـي عـام 2009 تصاعـدت الأحـداث الدمويـة، وتصادمـت الجماعـة مـع السـلطات عندمـا قامـت حشـود كبيـرة لتشـييع جنـازة أحـد أعضائهـا وأوقفـت قـوات الأمـن الجماعـة بالعنـف فاقتحمـت الجماعة مراكـز البوليس وقتلـوا عددًا مـن ضبـاط الشـرطة.

هـذه الأحـداث أدت بالحكومـة أن تحاصـر الجماعـة وتقتـل أكثـر مـن

700 مـن أعضائهـا، ولكـن الجماعـة اسـتطاعت أن تخـرق حصار الشـرطة وطافوا الشـوارع يواجهـون الشـرطة وقتلـوا عـددًا من المدنيين المسـلمين والمسـيحيين بغيـر تفرقة.

اسـتعادت الشـرطة سـيطرتها وبـدأت تعتقـل وتمـارس العنـف مـع أعضـاء الجماعـة ومـع أي شـخص يظهر أنه مؤيـد لها أو متعاطف معها، واعتقل عشـرات مـن النـاس وحبسـوا مـن غيـر محاكمـة، وقبـض علـى "محمـد يوسـف" بواسـطة الجيش الذي سـلمه للشـرطة التي قتلته خلال سـاعات، وقد أنكر ضباط الشـرطة أنهـم قتلـوه وقالـوا إنـه أطلق عليـه النار وهو يحـاول الهرب، ولكـن الفيديو الذي صـور الحـادث أظهـر بوضـوح تنفيـذ الإعـدام فيـه مـن البوليـس وعلـى عـدد من الصبيـة والشـباب ومـن قيـل أنهـم مـن أعضـاء بوكوحـرام ومنهـم "بوجـي فـوى" مفـوض الشـئون الدينيـة فـي الحكومة، أمـا أعضاء الجماعـة الذين لـم يقتلوا ولم يعتقلـوا فقد هربـوا خـارج نيجيريا.

وبعــد هــذه الأحــداث بــدأت الشــرطة والجيــش يحصلــون علــى معلومــات مــن الحــكام التقليدييــن والأئمــة عــن الأشــخاص الذيــن يشــك أنهــم مــن أعضــاء أو مــن المتعاطفيــن مــع بوكوحــرام، ومــن أفلــت مــن هــؤلاء صــودرت أموالــه، واختفــى عــدد غيــر معــروف مــن هــؤلاء الذيــن

اتهموا في ذلك الوقت، ويعتقد أن عددهم يجاوز المائة ولكن البوليس ينكر أنه أعدمهم.

ومن الطبيعي أن أحداث العنف لم تكن متكافئة بين قوة الجيش وقوة الجماعة حيث أن الجيش استخدم الأسلحة الثقيلة ومدافع الهون بينما الجماعة لم تملك سوى الأسلحة البدائية من السهام وبنادق الصيد. وأن غالبية أعضاء الجماعة كانوا شبابًا صغارًا في السن وكان الجيش يقتل دون تمييز حتى من يجده آمنًا في بيته باعتباره أنه من الجماعة وكانت جثثهم تترك مكشوفة تتحلل وتتفسخ لأيام والجميع ينظرون ولا يبالون، لقد أعطى الجيش كل الصلاحيات بإعدام كل من يتم القبض عليهم، وبذلك ترك منفذوها دون محاسبة.

بين عامي 2009 – 2010 جذبت انتفاضة الجماعة انتباه الجماعات الجهادية الدولية وجماعات الإرهاب على طول الساحل. وذكرت السلطات النيجيرية أنها تتابع عددًا من معسكرات التدريب تبلغ العشرات من النيجيريين، وأن أعضاء بوكوحرام يتلقون التدريب أيضًا في معسكرات للمتمردين لدى قبائل الطوارق في مالي. وذكر وزير خارجية النيجر أن النيجيريين يتمرنون في معسكرات الإرهابيين في منطقة الساحل.

ترتكز أيديولوجية بوكوحرام على الجهادية وتتميز بالصلابة والخشونة فهي أكثر التنظيمات عنفًا، وهي تميل إلى العزلة والتكفير والهجرة والتوحد والجهاد، معقلها الأصلي– كما سبق القول - قاعدة في قرية كاناما بولاية يوبي شمال شرق نيجيريا على الحدود مع النيجر، ووصفت الجماعة بأنها نسخة أقرب إلى طالبان في غرب أفريقيا. ومن أبرز ملامحها الفكرية أنها ترتكز حول عدد من الأصول أهمها العمل على تأسيس دولة في نيجيريا بالقوة المسلحة والدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية في جميع ولايات نيجيريا، وعدم جواز العمل في الأجهزة الأمنية والحكومة في الدولة، ورفض التعليم الغربي والثقافة الغربية، وبشكل عام فكرها أقرب إلى التكفير.

إن أبرز عوامل تنامي بوكوحرام في نيجيريا الفقر والتصحر والبطالة والأمية وغياب أجهزة الدولة على الرغم من أن نيجيريا تحتل المرتبة الأولى اقتصاديًا في القارة الأفريقية فناتجها المحلي يزيد على 500 مليار دولار. وهي دولة بها أكثر من 350 عرقًا وأكثر من 250 لغة وما يزيد عن 150 ديانة، ويشكل المسلمون أكثر من 70 % من إجمالي عدد السكان البالغ 150 مليون نسمة وهم يمثلون الأغلبية المطلقة في 19 ولاية في الشمال من أصل 36 ولاية يتألف منها الاتحادية النيجيرية،

ويمثـل إقليـم الشـمال أكبـر منطقـة كثافـة مسـلمة حيـث يشـكل المسـلمون فيـه 95 % . وقـد اسـتغلت بوكوحـرام عـدة عوامـل فـي شـمال وشـرق البـلاد ذات الأغلبيـة المسـلمة لكسـب مزيـد مـن المقاتليـن، واسـتغلت الفسـاد داخـل الحكومـة خاصـة الأمـن والجيـش لتسـتطيع اقتحـام السـجون وقتل المئـات، كما اسـتغلت الديـن لتصعيـد عملياتهـا الجهادية فـي المدن ذات الأغلبية المسـيحية. ويقـول الباحـث "علـي بكر" فـي "مجلة السياسـة الدولية": إن سياسـات الحكومة العسـكرية والمدنيـة المتعاقبـة فـي نيجيريا التي تسـتخدم العنـف المفرط تجاه الحـركات السياسـية المناوئـة لهـا خاصة بوكوحـرام أتاحت لها أن تكسـب العديد من الأنصار بين أوسـاط الشـباب، كما اسـتطاعت أن تكسـب تعاطف المسـلمين فـي نيجيريـا بسـبب عمليات القتل البشـعة والخارجة عن القانـون والتي ارتكبتها الشـرطة النيجيريـة فـي حـق أعضـاء الجماعة مما خلـق نوعًا مـن التعاطف تجاه الجماعـة وتقديـم العـون والمسـاندة لها.

كمــا يلعــب البعــد العرقــى دورًا كبيــرًا إذا يتشــكل شــمال نيجيريــا مــن قبيلتيــن كبيرتيــن هــي الهوســا وأغلبهــم مســلمون والإيبــو وغالبيتهــم مســيحيون، وكثيــرًا مــا يحــدث اشــتباكات دينيــة وعرقيــة بيــن القبيلتيــن، وتطــرح الجماعــة نفســها كمدافــع عــن الإســلام والمســلمين ممــا يعطــي

ذلك نوعًا من التعاطف".

وتتمثل المطالب الأساسية للمواطنين المسلمين في نيجيريا في أن يتحقق لهم وجود فعلي واضح على الخريطة السياسية للدولة بحكم أغلبيتهم السكانية، وأن يكونوا محل اعتبار عند اتخاذ قرارات تتعلق بالشئون الداخلية والخارجية.

يذكر أنه في عام 1999 صدر القانون الفيدرالي الذي يجيز لكل من الولايات النيجيرية إصدار قوانينها الخاصة، فبدأت بعض ولايات الشمال المسلمة تسير نحو أسلمة القوانين، وتعاقب إعلان الالتزام بالشريعة في 12 ولاية شمالية فاشتد غضب جماعة مسيحية وتنصيرية ونشبت نزاعات دموية بين الطرفين في عدد من المدن والأرياف سقط فيها مئات القتلى، وقد اعترض الرئيس النيجيري السابق "أوباسانجو" على تطبيق الشريعة وحذر من أنها أمر مخالف للدستور مستشهدًا بأن الرجم وقطع الأيدي يخالفان دستور نيجيريا ولذا ينبغي لتطبيق قانون ما أن يكون مدونًا في مواد دستور البلاد والشريعة ليست كذلك.

إن الواقع التنصيري الذي يهيمن على نيجيريا جعل من شعار تطبيق الشريعة موقفًا دفاعيًا يتخذه حكم الأقلية تجاه الأكثرية. وتقول الجماعات الإسلامية أن وسائل الإعلام الغربية انشغلت بالحديث عن

مساوىء الشريعة كما تراها، وشغلت أجهزتها السياسية لتعزيز النظام القائم من خلال تقاطر المسئولين الغربيين لزيارة نيجيريا وتغاضوا تمامًا عن حملات التنصير التي أصبحت تتحرك بصلافة في أرجاء البلاد، ولم تعد حملات التنصير والمنصرون يتخفون بأنشطتهم كما كان الحال في السابق وصاروا يعلنون عن مؤسساتهم بشكل واضح، وأصبحت مدينة لاجوس المركز الرئيسي للنشاط التنصيري في وسط وغرب أفريقيا كلها. وتشير التقديرات إلى تضاعف عدد المسيحيين في المنطقة خمس مرات منذ الخمسينيات حتى الآن.

ارتكبت الحكومة النيجيرية في المسلمين أبشع المجازر، ولم يتركوا العاجزين من الرجال والنساء حتى طالبت منظمة هيومان رايت ووتش المعنية بحقوق الإنسان بالتحقيق في ملابسات مقتل قائد الجماعة محمد يوسف وقد ظهرت صورة خاصة بجثته مقيد اليدين وتبدو على الجثة إصابات بالغة وتشوهات بسبب إطلاق الرصاص. وتولى قيادة الجماعة بعده ساعده الأيمن أبو بكر شيكاو الذي كثيرًا ما أعلن الجيش النيجيري والشرطة النيجيرية عن مقتله إلا أن الخبر دائمًا لا يكون صحيحًا، وكانت الجماعة ترد على مزاعم مقتله بفيديوهات دعائية تظهره على قيد الحياة حتى أطلق عليه الميت الحي. وقد

رصـدت الولايات المتحدة جائزة قيمتها سـبعة ملاييـن دولار لمن يقدم معلومات تسـاعد على القبـض عليه ولكن لم تغـر الجائزة أحدًا.

هـددت بوكوحـرام بتصعيـد عملياتهـا انتقامًـا لمقتـل العديـد مـن عناصرها وعلـى رأسـهم زعيـم الجبهـة السـابق محمد يوسـف، وأعلنت أنها ألحقت نفسـها بتنظيـم القاعـدة وأنهـا سـتلجأ إلـى الأعمـال الانتحاريـة وستشـن سلسـلة مـن التفجيـرات فـي شـمال البـلاد وجنوبهـا ممـا سـيجعل نيجيريـا مسـتعصية علـى الحكـم. فأثـار هـذا الإعلان المخاوف من انتشـار نمـاذج القاعدة فـي أفريقيا مما يشـكل تهديـدًا لعديـد مـن الأنظمـة وعـدم اسـتقرار الأوضـاع الأمنية فـي مناطق إنتـاج النفـط حيـث تملـك نيجيريـا 2.6 % مـن احتياطـات النفـط العالميـة. هذا بالإضافـة إلـى قلـق الـدول الغربيـة خاصة فرنسـا بسـبب مـا تمثلـه منطقة غرب أفريقيـا مـن أهميـة فـي مصالحهـا الاقتصادية والسياسـية.

بعـد مبايعـة بوكوحرام تنظيـم القاعدة عام 2009 عملت على رسـم خريطة جديـدة لتواجدهـا أبرزهـا فـي الجزائر مـع جماعات أبـو مصعب الجزائـري، وفي موريتانيـا مـع "الحركـة مـن أجـل الوحـدة والجهـاد" بزعامـة أحمـد ود خيـرو، وتنظيـم أنصـار الديـن فـي مالـي بزعامة إيـاد غالي.

لــم يكــن إعــلان بوكوحــرام بإلحاقهــا بالقاعــدة مجــرد إنــذار إذ بــدأ

علـى الفـور أسـلوب الضـرب والجـري ضـد رجـال الأمـن باسـتخدام الدراجـات البخاريـة (الموتوسـيكلات) حيـث تغتـال الجنـود وتحصـل علـى أسـلحتهم، واسـتهدفت أيضًـا القـادة المحلييـن المتعاونيـن مـع البوليـس والذيـن كانـوا يرشـدون البوليـس إلى أعضـاء بوكوحرام، وكذلك اسـتهدفوا من كان اسـتولى على منازلهـم بعـد هروبهـم مـن قبـل.

وفـي عشـية أعيـاد ميـلاد عـام 2010 تفجـرت قنابـل بجـوار الكنائـس وفـي السـوق فـي منطقتيـن في جوس وقتل العديد من الأشـخاص، واتهمـت بوكوحرام ولكـن قيـل أن ذلـك لـم يكـن مـن تدبيـر الجماعـة وإنمـا نتيجـة صـراع طائفـي سياسـي بعـد أن أصبح كل عمـل ينسـب إليها.

كمـا حدثـت تفجيـرات أخـرى فـي العاصمـة النيجيريـة أثنـاء الاحتفـال بمناسـبة مـرور خمسـين سـنة علـى اسـتقلال البـلاد. وأظهـرت هـذه الأحـداث للسـلطات أن الجماعـة قـادرة علـى أن تصـل إليهـم حتـى فـي أبوجـا.

وخـلال الشـهور الأولـى مـن عـام 2011 اتسـع نشـاط بوكوحـرام ومارسـت سـرقة البنـوك واصفـة مـا تأخـذه مـن مـال بأنـه مـن غنائـم الحـرب، ويقـال أنهـا جمعـت نحـو 500 مليـون نائيـرًا NAIRA أي حوالي ثلاثة ملاييـن دولارًا من هذه السـرقات، ولكـن هـذه الادعـاءات غيـر محققة.

وفـي يونيـو مـن ذلك العـام فجـرت بوكوحرام مبنـى أركان الشـرطة الوطنية فـي أبوجا بواسـطة سـيارة محملة بالمتفجرات رغم أن هـذا المبنى مقر المكاتب الرسـمية ومؤمنـة، كمـا فجـرت سـيارة عنـد مقـر الأمـم المتحـدة في أبوجـا، وثار التسـاؤل عمـا إذا كان ذلـك تفجيرًا أم عمـلًا انتحاريًا، واحتلـت هجمات بوكوحرام مـكان الصـدارة فـي أخبـار العالـم، واعتبـرت جماعة مسـلحة بدأت تتخذ وسـائل تكتيكيـة تـؤدي إلى تفجيـرات انتحارية.

وفـي العالـم التالي 2012 واصلـت بوكوحرام هجماتها، وأحرقت 12 مدرسـة فـي مـادو جـوري وفقـد عشـرات الآلاف مـن التلاميـذ أماكـن دراسـتهم، وأعلنـت بوكوحـرام أن هـذه الهجمـات هـي رد علـى القبـض علـى عـدد مـن المدرسـين الإسـلاميين الذيـن يعملـون فـي المـدارس الإسـلامية "سـانجايا" حيـث يـدرس المدرسـون القـرآن للطـلاب. وهـذه المـدارس لا توجـد فـي نيجيريـا فقـط ولكنها تعمـل عبـر السـاحل كلـه. ويعـرف الأطفـال التلاميـذ فيهـا باسـم المجاريـس AL MAJRIES يأتـون مـن الريـف إلـى المـدن وبعضهـم يمارس التسـول طـول النهار ثـم يعطـون المـال الـذي جمعـوه للمـدرس الـذي يدير المدرسـة.

وتذكـــر الجماعـــة أنهـــا تهاجـــم المـــدارس الحكوميـــة لأن الحكـــوم

تهاجـم مدارسـهم، علـى أن قمـة الأحـداث التي لفتت أنظـار العالم وهـزت الرأي العـام العالمـي هـو مـا قامـت بـه الجماعـة في أبريـل 2014 مـن اختطـاف 223 تلميـذة من طالبات المـدارس وأعلنت عزمها على معاملة التلميذات المختطفات كسبايا، وهـددت بيعهـن جـواري مـا لم تطلق السـلطات سـراح أعضـاء الجماعة المعتقليـن. ونقـل تسـجيل فيديـو عـن "أبـو بكـر شـيكاو" زعيـم بوكوحـرام قوله إنـه مسـتعد لإطـلاق سـراح الفتيـات التـي خطفهـم مقاتلـوه مقابـل الإفـراج عـن سـجناء لهـم، ولكـن الرئيس جوناثـان رفض ذلك، وكان شـيكاو أعلن قبـل الحادث عزمـه عـن اختطـاف فتيات ردًا على قيام الشـرطة باختطاف زوجـات وأطفال من عناصـره وقـد نفذ تهديـده باختطـاف التلميذات من مدرسـتهن.

وبعـد حـادث اختطـاف الفتيـات، خطفـت بوكوحـرام عشـرات مـن صيـادي السـمك فـي شـمال نيجيريـا ونقلـت عـددًا منهـم فـي زوارق عبـرت بحيرة تشـاد إلـى إحـدى معاقـل الجماعـة قـرب الحـدود مـع تشـاد، فـى منطقـة نائية تتسـم بضعـف الاتصـال بها.

ثـــار العالـــم وعلـــى رأســـه فرنســـا والولايـــات المتحـــدة وإســـرائيل وبريطانيـــا لحـــادث خطـــف التلميـــذات وعرضـــوا خدماتهـــم لتحريـــر الفتيـات، وأثيـر الأمـر فـي مجلـس الأمـن الـذي أدرج بوكوحـرام النيجيريـة

علـى القائمـة السـوداء للمنظمـات الإرهابيـة الخاضعـة لعقوبـات دوليـة بسـبب علاقتهـا بتنظيـم القاعـدة، واتخـذ المجلـس هـذا القـرار اسـتجابة لطلـب رسـمي مـن الحكومـة النيجيريـة. وتتمثل العقوبـات في تجميد أرصـدة منظمات القائمة السـوداء وقياداتهـا وخطـر تصدير السـلاح إليهـا، والمنع من السـفر وحرمانها من أي دعـم مـن المجتمـع الدولي.

هـذا التهديـد والعقوبـات لـم يحـد مـن هجمـات بوكوحـرام، ففـي نوفمبـر قامـت الجماعـة بهجـوم مسـلح بالقنابـل والأسـلحة الرشاشـة علـى مصليـن فـي مسـجد بمدينة كانو أسـفر عن سـقوط خمسـين قتيلًا وإصابة 170 آخرين وفرار ثلاثـة آلاف شـخصًا إلـى النيجـر حسـبما ذكـرت الأنبـاء. واعتبـر الهجـوم تطـورًا نوعيًـا فـي الهجمـات بالانتقـال مـن المـدن النائيـة إلى المـدن الكبـرى. وقد وقع هـذا الهجـوم بعـد محاكمـة عسـكرية لــ 59 جنديًا في الجيـش النيجيـري انحازوا لبوكوحـرام، وقضـت المحاكـم بإعـدام 12 جنديًـا منهـم بتهمـة التمـرد ورفـض القتـال ضـد المسـلحين مـن بوكوحـرام وإطلاقهـم النـار علـى ضابـط القيـادة في مادوجوري.

والحاصـل أنـه علـى مـدى السـنوات الخمـس الماضيـة خاضـت نيجيريـا معركـة شرسـة للقضـاء علـى تمـرد بوكوحـرام دون جـدوى، حتـى فرضهـا حالـة الطـوارىء فشـلت فـي السـيطرة علـى مسـلحي الجماعـة التـي

تطورت تكتيكاتها من مجرد الكر والفر إلى الاستيلاء على البلدان والقرى الواقعة شمال شرقي البلاد في بورنو ويوبي وأمادو معلنة إياها أنها جزء من الخلافة الإسلامية. وبدلًا من أن تشتاط الحكومة النيجيرية لهذا الإجراء الانفصالي فإن ما حدث هو العكس وأثبت عام 2014 أنه أكثر أعوام التمرد دموية، في ظل هجمات متكررة على نحو متزايد وعدد أكبر من القتلى والمشردين ونزوح أكثر من 1.5 مليونًا، وفقًا لتقرير الحكومة المحلية بولاية بورنو.

انتهجت بوكوحرام استراتيجية جديدة هي سياسة التشتيت أي شن هجمات متقطعة على حدود أكثر من دولة بهدف تشتيت الجهود العسكرية التي تقوم بها الدول المحيطة ببحيرة تشاد، فإذا ما تم الضغط عليها من بعض المناطق فإنها تحاول تجنب ذلك الضغط بالظهور في مناطق أخرى. وما يساعد بوكوحرام على اتباع سياسة التفتيت أنها لا تخضع لهيكل تنظيمي واضح، وهذا يسمح لها بالمراوغة والإدماج وإجراء عمليات سريعة والانسحاب سريعًا. وهذا التكتيك في الحرب هو الذي أدى إلى استسلام الجيش النيجيري رغم أنه يعد من الجيوش القوية في أفريقيا إذ يبلغ قوامه 130 ألف جنديًا.

وفي فبراير من هذا العام 2015 تشكل تحالف من دول بحيرة

تشاد ضد بوكوحرام، وتزعمت تشاد التحالف الذي ضم النيجر والكاميرون ونيجيريا وتشاد التي أرسلت تعزيزات عسكرية لدعم الجيش الكاميروني الذي تعرض لهجوم في المنطقة الشمالية الحدودية مع نيجيريا، فهاجمت بوكوحرام مواقع الجيش التشادي في بلدة جامبارا شمال نيجيريا حيث يرابط جنود تشاديون. ومشكلة تشاد أن بوكوحرام تتمركز على مسافة أقل من 100 كليو من العاصمة التشادية بنجامينا. وتخشى السلطات التشادية من تسلل عناصر تابعة للجماعة إلى تشاد اعتمادًا على علاقات عائلية أو تجارية في منطقة حدودية تختلط فيها الأعراق والمصالح. وأن يتمدد تأثير الجماعة إلى الجارة الشرقية لها، وتشاد والسودان على خلاف مستمر، ودائمًا ما تتهم تشاد الخرطوم بانتهاك سيادة أراضيها والتدخل في شئونها الداخلية والسعي للإطاحة بنظامها، وتتهم الخرطوم تشاد بدعم المسلحين في دارفور بتوفير المساحة والدعم المباشر وغير المباشر والمساهمة في تفجير الأوضاع في دارفور المضطربة في غرب السودان، حيث القبائل المشتركة على حدود التماس بين تشاد وإقليم دارفور تختلط فيه الأنساب والأعراق ويقوى التضامن بين القبائل، وهذا الاختلاط يخدم

بوكوحرام.

إن صدى الإرهاب في المغرب الإسلامي وجد استجابة سريعة وكبيرة ليس في الدول الأفريقية فحسب بل من العالم الغربي، وبدعم من الولايات المتحدة وبمشاركة 1300 جنديًا من 28 دولة أفريقية وغربية جرت فى شهر مارس مناورات عسكرية يطلق عليها اسم "فلينتلوك FLINTLOCK"، وشاركت فيها الجزائر وتونس (وهما من دول الشمال الأفريقي وليس من دول الصحراء) ووصفت بأنها استعداد لهجوم ضد بوكوحرام.

وتهدف مناورات "فلينتلوك" التي تجرى سنويًا منذ عام 2005 إلى تقوية التعاون العسكري عبر الحدود في حزام الساحل الأفريقي. وهذا التدريب يمكن اعتباره تجهيزًا لتمكين قوات خاصة من تعلم تقنيات الحرب ضد الإرهاب. ويشارك في المناورات 250 جنديًا أمريكيًا. وأهداف التدريبات تبادل المعلومات المخابراتية والتدريب على الدوريات وتقنيات الحياة في الصحراء والعمليات المحمولة جوًا والرماية. وبعد انتهاء المناورات يترك الجيش الأمريكي وراءه المعدات. وقال الجنرال "جيمس ليندر" قائد العمليات الخاصة الأمريكية في أفريقيا أن الجيش الأمريكي سيقدم معدات اتصال

ومعلومات استخباراتية وتقنيات تسمح بالتخابر عبر الهواتف المحمولة والرسائل اللاسلكية وأجهزة الكمبيوتر لمساعدة الدول الأفريقية في قتالها لجماعة بوكوحرام. ومن الأمور التي ستضطلع بها أمريكا عبر الطيران، عن طريق الطيران فوق الهدف والحصول على تسجيل صوتي كامل للتحركات أو القيام بنوع من التحليل الجغرافي للمكان أو التحليل التقديري لحركة العدو. وجاء رد الفعل من بوكوحرام أن توعد زعيمها "أبو بكر شيكاو" بإلحاق الهزيمة بالقوات الأفريقية التي تقاتل جماعته وهدد بنقل النار إلى الدول المجاورة.

نظرية المؤامرة

مما تقدم نجد أن أغلب جماعات العنف أو الجماعات الجهادية التي تتسم بالإرهاب بدأت جماعات معارضة سلمية تطالب بحقوق قد تكون مشروعة أو مغالى فيها، وأنها لم تشهر السلاح وتتحول إلى العنف إلا عندما مورس ضدها ألوان من القهر تصل إلى حد الإبادة.

ولكن هناك من يحجر عليها هذه المطالب ويطالب بإقصائها ويصفها بالعمالة لجهات أجنبية وأنها تتآمر على نظمها، وتمشيًا مع نظرية المؤامرة ألم يكن نشاط بوكوحرام في نيجيريا أدى

إلـى إضعـاف نيجيريـا حتى وقعت البلاد فعليًا تحت أيـدي أمريكا وحلفائها الغربييـن فـي وقـت كان مركز نيجيريـا في غرب أفريقيـا يتبوأ مكانًـا عاليًا، ألـم يكـن انهيـار السياسـة الخارجيـة لهـا الناجـم عـن ضعـف حكومتهـا يتماشـى مـع بوكوحرام، ذلـك أن الولايات المتحدة ترغـب بإلحاح أن تجعل نيجيريـا هدفًـا لقواتهـا وموقعًـا لهـا فـي أفريقيـا تحـت مظلـة "الأفريكـوم" - قـوات القيـادة الأمريكيـة فـي أفريقيـا - UNITED STATE AFRICAN COMMEND. وكيـف يمكـن لنيجيريا أن تقـاوم عروض الأفريكوم إذا كانت الولايـات المتحـدة قـادرة علـى مسـاعدتها. ويذكـر أن الرئيـس النيجيـري جوناثـان كتـب إلـى الحكومتيـن الإنجليزيـة والإيطاليـة عـام 2012 بعـد أن فشـل فـي إنقـاذ الراهبيـن التابعيـن لهمـا يقـول "إن الحكومـة النيجيريـة تواجـه تحـدي الإرهـاب علـى مستوى الجماعـة الدوليـة، مشـيرًا بذلك إلى أن هنـاك علاقـة بيـن بوكوحـرام والقاعـدة، وأن العلاقـات بيـن نيجيريـا والـدول الأجنبيـة لابـد أن تنمو بشـكل أعمق. وعلق المراقبـون على حديثه بأنـه يحمـل طلبًـا مستترًا لمعونة الأوروبيين. وقد سـخر الرئيـس الأوغندي "يـوري موسـيفيني" مـن طلـب الحكومـة النيجيريـة الاسـتعانة بمسـاعدة

أمنيـة مـن الولايـات المتحـدة وبريطانيـا وإسـرائيل والصين لإنقـاذ الفتيات المختطفـات، وقال إن فشـل الجيش النيجيري فـي تحقيق الأمن للمواطنين لا يمكـن قبولـه وأن المـوت أفضـل مـن السـماح للـدول الأجنبيـة لتحقيـق الأمـن لـدول القارة، وأن قيام بعـض الدول الأفريقية مثـل نيجيريا والكونغو الديمقراطيـة والصومـال بطلـب مسـاعدات أجنبيـة لحمايـة مواطنيها يصل إلـى درجـة التصويـت بحجـب الثقة عـن زعماء هـذه الدول.

والحـال أن الأفريقييـن الآن يستشـعرون خطـر أن تقع أفريقيـا في يد القوى الاسـتعمارية مـن جديـد. ويعتبـر بعض القادة أن قـوى المعارضة فـي دولهم هم ألعوبـة فـي يـد هذه القوى، وأن أنشـطتهم هـي التي أدت إلى إضعـاف نظمهم!!

وأيضًا بالنسبة لفرنسا فإن ما صنعه الفرنسيون في مالي يثير الشكوك، فثمة سؤال يتردد لماذا سمحت السلطات الفرنسية عندما تدخلت في مالي بعنف في ينايـر 2013 بادعـاء تحريرها من المجاهدين الإسـلاميين. لماذا أفسـحت لإياد أخ غالي IAD GHALI قائد جماعة الأنصار الإسلامية طريقًا حرًا عبر الإقليم وسمحت لمجموعـة من المقاتلين الإسـلاميين يفـرون من تحت قبضتها؟، إن السـؤال لماذا

تركتهـم يذهبـون إلا أن تكـون قاصـدة أن يبقـى لهـا دور علـى مـدى طويـل فـي صحـراء السـاحل وأن توجـد مبـررًا لوجودهـا. لقـد سـمحت السـلطات الفرنسـية للقـوى الإسـلامية بالمرور لكي تبقى لنفسـها مسـوغًا في الغـرب الأفريقي.. وتلك هـي المؤامـرة بعينها.

***

ثالثًا: الاستعمار الجديد يدفع إلى العنف

الأطماع الاستعمارية في أفريقيا لا تتوقف، منذ أكثر من قرن من الزمان احتلت القوى الاستعمارية القارة الأفريقية تحت شعار إنقاذ أفريقيا من التخلف ونشر الحضارة، واليوم تتدخل تحت راية إنقاذ القارة من الإرهاب ونشر السلام.

أهداف الاستعمار الجديد هي حماية المصالح والشركات الأوروبية العاملة في أفريقيا، مواجهة النفوذ الاقتصادي الصيني وغيره المتصاعد هناك، الخوف من تداعيات الصراعات على نفوذه داخل هذه الدول، وعين الغرب على ثروات القارة الطبيعية، وأن أكبر دولتين تعلنان ذلك صراحة هما فرنسا والولايات المتحدة.

بالنسبة لفرنسا: إن ما تفعله فرنسا في المحيط الإسلامي الغربي الأفريقي لا يصنف إلا أنه استعمار جديد بآلية قديمة وهو التدخل السافر ونشر الفتن والخلافات بين جماعات البلد الواحد لتبقى الصراعات الدائرة فيها بابًا مفتوحًا لتدخلها في أي وقت بدعوى الحفاظ على مصالحها

الاستراتيجية في بلاد تعتبرها إلى اليوم مستعمراتها ومناطق نفوذها.

إن الحملات العسكرية التي تشنها باريس في الساحل الأفريقي تبقى غامضة الأهداف، هل هي تدمير الإرهابيين كما أدلى بذلك الرئيس الفرنسي أو إيصال الأوضاع إلى الاستقرار، أم إعادة السيطرة على منطقة كانت تحتلها، أم إعادة موطىء قدم لها في القارة بعد دخول لاعبين جدد كالصين والهند والبرازيل ومحاولتهم إرساء وجود لهم هناك مما لا يناسب القوى الإمبريالية الكبرى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا، أم محاولة للتغطية على الإخفاقات داخل فرنسا من ارتفاع في نسبة البطالة والأسعار، والغطاء التكتيكي هو محاربة الإرهاب الإسلامي. أيًا ما كان الأمر فإن غياب رؤية استراتيجية واضحة قد تغرق فرنسا في مناطق صحراوية واسعة مواتية لحرب العصابات، وستجد فرنسا نفسها تنساق في عملية حربية لا نهائية في وجه حركات التمرد وهي عملية مثقلة بالتخبط ومنذرة بالفشل على الرغم من حرفية القوات الفرنسية المحاربة.

وإذا كانت المصالح الاقتصادية هي المحرك الواضح لتدخل فرنسا وغيرها في شئون أفريقيا حيث شركات الذهب والنفط والماس هناك، فإن هذا لا ينفي الدوافع الاستعمارية، ولم يخرج تدخلها في مالي وأفريقيا الوسطى عن هذا الإطار، وقد تدخلت فرنسا في مالي منفردة بغطاء دولي

أوروبـي أمريكـي أممـي، وجـاء تدخلهـا أيضًـا فـي أفريقيـا الوسـطى مشـابهًا. فبعـد تبنـي مجلـس الأمـن قـرارًا بمنـح قـوة أفريقيـة وأخـرى فرنسـية تفويضًـا بالتدخـل بدعـوى حمايـة المدنييـن والتصدي للجماعات المسـلحة تم على الفور نشـر الجنود الفرنسـيين فـي طـوال البـلاد وعرضها.

أن العمليـات العسـكرية الفرنسـية منـذ بدايـة القـرن الواحـد والعشـرين تتسـارع وتتلاحـق، ففـي سـبتمبر 2002 أرسـل قصـر الإليزيـه قـوة عسـكرية إلـى سـاحل العـاج (كـوت ديفـوار) إحـدى دول الفرنكفونيـة سـابقًا لينخـرط بضـع آلاف مـن الجنـود بشـكل كبيـر فـي عمليـات بريـة بدعـوى منـع وقـوع حـرب أهليـة فـي منطقـة ذات أهميـة للمصالـح الفرنسـية. وانتهـزت فرنسـا انـدلاع اشـتباكات بيـن فصائـل الطـوارق في شـمال مالي وسـارعت بإرسـال قوة فرنسـية وحـددت مهمتهـا فـي طـرد المتشـددين مـن مالـي، وأيضًـا مـن البـلاد المجـاورة علـى طـول الحافـة الجنوبيـة للصحـراء الكبـرى زعمًـا بأنهـا تأثـرت مـن النشـاط الإرهابـي، وأعلـن وزيـر الدفاع الفرنسـي أن فرنسـا يتعين عليهـا أن تحارب القوى الإسـلامية علـى طـول السـاحل والصحـراء مـن موريتانيـا علـى المحيط الأطلسـي إلـى السـودان، ووصـف المنطقـة بأنها خطـرة وتحوي كل أشـكال التهريـب وأنها مفتـاح الأمـن لـدول أفريقيـا ولأمن فرنسـا نفسـها. ولم تذكر فرنسـا أي شـيء عن

وسائلها في التدخل ومواجهة الإرهاب.

وجاء حادث اختطاف التلميذات في نيجيريا فرصة ذهبية لفرنسا بالرغم من أن نيجيريا لم تكن من مستعمراتها السابقة، إلا أن الرئيس الفرنسي سارع بعقد قمة بقصر الإليزيه ضمت عددًا من قادة الدول الأفريقية لبحث الوضع في نيجيريا، حضرها رؤساء نيجيريا وتشاد والكاميرون وبنين وممثلين عن بريطانيا والولايات المتحدة للاتفاق على خطة إقليمية للتحرك والتصدي لبوكوحرام وتأمين وجود عسكري حول بحيرة تشاد تكون له القدرة على التدخل في حالة الخطر. وحسب تصريحات وزير الدفاع الفرنسي يكون قوام القوة العسكرية ثلاثة آلاف جنديًا، وذلك ضمن عملية تنظيم القوات العسكرية المنتشرة في المنطقة لمكافحة الإرهاب. وبادر الرئيس الأمريكي "أوباما" بتخصيص نحو 750 مليون يورو لفرنسا لدعم مكافحة الإرهاب، وقال إن حالة الطوارىء المحتملة للقضاء على النشاط الإرهابي تتطلب وجود مساعدات عاجلة لفرنسا لمواجهة الإرهابيين والمتطرفين ومستخدمي العنف.

وتلخص فرنسا دوافعها في هذا السلوك في أربعة أسباب:

1. أنه رغم العمليات العسكرية الفرنسية ووجود قوة حفظ السلام للأمم المتحدة والمدربين للجيوش الأفريقية التابعين للاتحاد

الأوروبي فإن الوجود الإسلامي للجهاديين يتزايد والعناصر الإرهابية تعيد تنظيم نفسها فالمنطقة أبعد ما تكون عن الأمان، وهذا يتطلب وجودًا مستمرًا وأساسيًا للقوات الفرنسية.

2. أمور تتعلق بتجارة المخدرات في هذه المنطقة.
3. هناك تهديدات إرهابية لإثارة القلاقل في تشاد ويقال إن مختار بن مختار قائد المرابطين (منظمة) الجهاديين التي تكونت باتحاد بين حركة التوحيد والجهاديين في غرب أفريقيا MUJAO يعد لحملات إرهابية في المنطقة.
4. التهديد المتصاعد الذي تشكله بوكوحرام في نيجيريا لأقطار أخرى في الإقليم وخاصة في النيجر والكاميرون وأجزاء غربية من تشاد كما تواجه ذات التهديد بعدم الاستقرار والإرهاب عن طريق هجرات اللاجئين من المقاتلين أعضاء بوكوحرام.

والحقيقة أنه لا يوجد تحليل كاف لشرح لماذا هذا كله بالشكل الكارثي في أفريقيا. قد تكون مساعدة الناتو للإطاحة بمعمر القذافي في ليبيا 2012 كان لها تأثير مأسوي مدمر على الساحل مما لم يكن يتنبأ به الناتو، ففضلًا عن آلاف العمال والمرتزقة والمجندين ذوي

العقـود الطويلـة المـدى فـي جيـش القذافـي، وفضـلًا عـن أن هـؤلاء عـادوا إلـى السـاحل، فـإن المنطقـة صـارت تعـج بالسـلاح المسـروق مـن ترسـانات القذافـي ممـا يقـود إلـى احتمـالات مـن الخطـر غيـر مقـدرة.

بالنسـبة للولايـات المتحـدة: جـاء اهتمـام الولايـات المتحدة بمنطقة السـاحل الغربـي الأفريقـي (المغـرب الإسـلامي) متأخـرًا نسـبيًا وفـي إطار شـعار الحـرب على الإرهـاب الـذي رفعتـه أمريـكا بعـد أحـداث 11 سـبتمبر سـنة 2001. وطبقًـا لتحليل وزارة الدفـاع الأمريكيـة فـإن هـذه المنطقـة تمثـل خطـرًا اسـتراتيجيًا علـى الولايات المتحـدة، وقـد أنشـأت بالفعـل قاعـدة عسـكرية فـي النيجـر للتجسـس مـن خـلال اسـتخدام الطائـرات دون طيـار.

وعلـى أيـة حـال فـإن الحـرب علـى الإرهـاب أضحـى مجـرد سـلاح ترفعـه الولايـات المتحـدة حتـى فـي صراعهـا ضـد الصيـن، إذ لـولا القاعـدة فـي أفريقيا لمـا تمكنـت أمريـكا من القيام بأنشـطة عسـكرية تسـتهدف في حقيقتهـا النفوذ الصينـي المتزايـد فـي أفريقيـا، لقـد أصبـح مقولـة الحـرب علـى الإرهـاب تعنـي القيـام بأي شـيء.

ولكــن السياســة الأمريكيــة بعــد تجربتهــا المهينــة فــي الصومــال لــم تعـد تفكـر فـي التدخـل عسـكريًا بقواتهـا علـى الأرض وتكتفـي باسـتخدام السـلاح الجـوي أو مـن يحـارب لهـا بالوكالـة كفرنسـا فتمنحهـا التأييـد

المادي والمعنوي لتنفذ فرنسا ما تشاء بمباركة أمريكية.

وصفت الولايات المتحدة يومًا الساحل الغربي الأفريقي بأنه طريق الإرهاب، وأنه بيت القاعدة في المغرب العربي، وأنه يرتبط باستمرار بالإرهاب والتطرف، عندما قال ذلك وزير الدفاع الأمريكي "رونالد رامسفيلد" في عام 2002 كان يقصد بطريق الإرهاب صحراء الساحل، وكانت المنطقة في ذلك الوقت من أهدأ المناطق في العالم، واليوم تعتبر من أكثر المناطق خطورة.

وتطبيقًا لسياسة محاربة الإرهاب أسست الولايات المتحدة "الأفريكوم" عام 2007 وبدأت نشاطها رسميًا عام 2008. والأفريكوم هي القيادة الأفريقية الأمريكية المسئولة عن العمليات العسكرية الأمريكية وعن العلاقات العسكرية في أفريقيا مع 53 دولة أفريقية (ما عدا مصر)، ويناط بها العمليات العسكرية في أفريقيا لمواجهة الخطر الأمني الذي تشكله الشبكات الإرهابية، وأوجزت فكرة إنشائها في ثلاث أسباب:

1. تنامي ظاهرة الإرهاب الدولي في الصحراء الغربية.
2. تزايد الاعتماد الأمريكي على مصادر الطاقة الأفريقية.
3. نمو العلاقات بين الصين والدول الأفريقية.

ولتحقيق أهداف الأفريكوم أعلنت الولايات المتحدة برنامجًا أطلقت عليه لفظ "مكافأة العدالة" يهدف لجمع معلومات عن النقاط الساخنة في العالم ليتيح القبض على عشرات الأفراد الذي يصنفون أنهم إرهابيون يهددون الولايات المتحدة.

وفي يونيو 2014 أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية عن مكافأة قيمتها 18 مليون دولارًا مقابل أي معلومات تؤدي إلى اعتقال أربعة إرهابيين ينشطون في غرب وشمال أفريقيا وهم أبو يوسف المهاجر خبير المتفجرات العضو السابق في حركة التوحيد والجهاد المصرية، وخالد البرناوي الزعيم المفترض لتنظيم الأنصار المنبثق عن بوكوحرام، وحمد الخيري وأحمد التلمي اللذين أسسا حركة التوحيد والجهاد في غرب أفريقيا التي تنشط في مالي والنيجر.

والسؤال كيف يهدد أمريكا هؤلاء الذين ينشطون في أفريقيا إلا إذا كانت الولايات المتحدة تعتبر أفريقيا جزءًا من نفوذها.

أن الاهتمام الأمريكي بالشأن الأفريقي لا يكمن فقط في محاربة الإرهاب بل الاستحواذ والسيطرة على أفريقيا كمعبر تمارس منه الولايات المتحدة عمليات توسيع انتشارها العسكري عبر العالم. بالإضافة إلى الاحتياطيات النفطية في أفريقيا التي باتت تمثل للولايات المتحدة مسألة أمن قومي، حيث

أن سيطرة الولايات المتحدة على مخزون النفط الأفريقي بجانب سيطرتها على نفط العراق يعني تحكمها في الاقتصاد العالمي، ويشكل مصلحة قومية استراتيجية لها، وهذا ما يجعل أمريكا تتغاضى عن فساد أنظمة الحكم في الدول النفطية الأفريقية. أن موقع أفريقيا في الاستراتيجية الأمريكية الرامية إلى الهيمنة الإمبراطورية على العالم يعززه ضرورة وجود قوات أمريكية في الساحل الغربي لتأمين خط أنابيب بترول تشاد والكاميرون المتجه إلى الأطلسي، وهذا ما يجعل لنيجيريا مكانة خاصة في الأجندة الأمريكية لكونها أكبر منتج للبترول في القارة الأفريقية، وتحتل المركز الخامس في قائمة الدول المصدرة لأمريكا. أن الولايات المتحدة ترغب في أن تجعل نيجيريا موقعًا لها في أفريقيا تحت مظلة قيادة "الأفريكوم".

والاهتمام الأمريكي بنيجيريا لا ينبع من خطر الإسلام الأصولي ولا إلى البترول فحسب وإنما أيضًا الخوف من النشاط الصيني في أفريقيا عامة ونيجيريا وعلى وجه الخصوص، فقد استثار الولايات المتحدة اتفاق إنشاء الصين خط سكة حديد ساحلي بنيجيريا، أخذًا في الاعتبار أن الصين تستطيع أن تلاحق الولايات المتحدة باعتبارها الدولة الأقوى اقتصاديًا، وهي تعمل بإصرار على مد علاقاتها بأفريقيا للحصول على المواد الخام لصالح صناعاتها التي تنمو بقفزات واسعة

وتجعلها منافسًا للولايات المتحدة في بقعة أفريقية هامة.

أن الاتفاق الصيني النيجيري لا يعني أن نيجيريا تتحدى الولايات المتحدة فنيجيريا لا يمكن أن تقاوم إغراء مساعدة الأفريكوم لها في استعادة التلميذات المختطفات أو ملاحقة عناصر بوكوحرام، وقد يؤدي ذلك أن تتيح نيجيريا كل إمكانيات الخدمات العسكرية والمخابراتية للتدخل الأمريكي، وتجد الحكومة النيجيرية نفسها غير قادرة على معارضة أي وجه من وجوه الأهداف الاستراتيجية التي تضعها الولايات المتحدة تحت برنامج "الأفريكوم" وحينذاك تسقط نيجيريا سياسيًا في يد الولايات المتحدة وستتمزق إربًا.

إن نيجيريا ما لم تتعامل مع مشاكلها الاجتماعية الداخلية فإن بوكوحرام وما يماثلها ستجعل من الصعب حكم نيجيريا. حقيقة أن نيجيريا تحوز عددًا من القوى والثروات ولكنها تفتقد إرادة العمل بالنسبة للمجالات الاجتماعية والسياسية سواء مع القادة الدينيين أو المدنيين، والمسألة لا تحتاج إلى محاربة الإرهاب قدر احتياجها محاربة الفقر بواسطة القضاء على الفساد.

***

رابعًا: الخروج من دائرة العنف

بداية إن أفريقيا غارقة في وهن يعجزها عن التقدم والتنمية، وهذا الوهن الأفريقي يرجع إلى خمسة أسباب وكلها مشاكل عويصة وهي الاستعمار والصراعات القبلية والفقر والجهل والأمراض المتوطنة. وكل هذه الأسباب تعاني منها نيجيريا، لذلك فخروجها من دائرة الوهن والعنف ليس بالأمر اليسير.

إن المشاكل الاقتصادية والصراعات العرقية الإثنية، وكذلك الصراعات المسلحة بين الدول بعضها ببعض نظرًا للخلافات التي خلفها الاستعمار في القارة تساهم في انتشار العنف المسلح الذي تستغله التيارات السياسية والدينية من أجل إيجاد مكان لها. في هذه الظروف يمكن أن تنمو التيارات المتطرفة العنيفة، فنماذج القاعدة وبوكوحرام قابلة للانتشار والتصاعد ما دام هناك الفقر والبطالة وعدم وجود عدالة في التوزيع، إضافة إلى الانتهاكات الصارخة التي تقوم بها الحكومات الأفريقية تجاه مواطنيها ومعارضيها، فضلًا عن غياب

الاعتراف الرسمي بالمكون الثقافي الإسلامي لهذه الجماعات.

كل هـذه الأمـراض والمشـاكل تعانـي منها نيجيريـا التي كانـت توصف يومًا بلؤلـؤة القـارة. والمعلومـات عـن نيجيريـا تشـير إلـى أوضـاع مضطربـة سياسـية واجتماعيـة وصراعـات قبليـة ودينيـة، فهنـاك أكثـر مـن 350 عرقًا وأكثـر من 250 لغـة، والقـوى الاسـتعمارية القديمـة تريد العودة مـن جديدة إلى هـذه المنطقة الغنيـة بالثـروات، ويصعـب جدا تقييم الحركات السياسـية هنـاك ومنها بوكوحرام بـدون اسـتحضار كل هـذه الظـروف المضطربة.

إن الناتـج المحلـي الإجمالـي فـي نيجيريا ارتفع بشـكل كبيـر بحيث أضحى الاقتصـاد النيجيـري أحـد أكبـر الاقتصاديات الصاعـدة في أفريقيـا وتضاعف بنحو 700 % مقارنـة بمـا كان عليـه عـام 1999. ولكـن هـذا الواقـع للنمـو الاقتصـادي لا يظهـر فـي طريقـة توزيـع تلـك الثـروة الهائلـة ولا يكشـف عـن كيفيـة حدوث هـذا التراكـم الرأسـمالي بـل جـاء بالعكـس. فقـد ارتفعـت معـدلات البطالـة بما يزيـد عـن 50 % ، وأن هنـاك نحـو مائـة مليـون مواطنًـا يعيشـون علـى أقـل مـن دولار واحـد يوميًـا بمعنـى أن 70 % مـن جملـة السـكان يعيشـون تحـت خـط الفقـر، ولا يخفـى أن الاقتصـادي النيجيـري لا يزال تحت رحمة الشـركات الأجنبية

متعددة الجنسيات التي تعمل على نهب ثروات البلاد بمساعدة النخب الوطنية التي تحصل على الفتات، ويقول العالم الاقتصادي الجنوب أفريقي "موليتسي مبيكي" في كتابه "هندسة الفقر" أن النخب النيجيرية الحاكمة بعد مرور سنوات طويلة على الاستقلال لم تستطع بناء صناعة وطنية بما يدفع المجتمع إلى الأمام بل أسهمت بدور بارز في تدهور الدولة ومؤسساتها، كما أنها أضحت واحدة من أكثر النخب الحاكمة فسادًا على ظهر الأرض ولا تزال الشركات الكبرى في نيجيريا في أيد أجنبية وتقوم هذه الشركات بجمع مليارات الدولارات وتحويلها للخارج في حين يظل الفتات منها نهبًا لسوء الإدارة والفساد الذي تمارسه النخبة الحاكمة حتى أن أحد المسئولين عن الجامعات هناك وقع عقودًا بملايين الدولارات مع شركات غير موجودة.

إن الفساد وسوء الإدارة وتحالف المصالح الخارجية والداخلية يقف حائلًا أمام استقرار نيجيريا. وفوق كل ذلك خطر الجماعات المتطرفة الذي يهدد بتقويض دعائم الدولة، ونظرًا لعدم كفاءة أجهزة الأمن الوطنية وعدم قدرتها على مواجهة العمليات المتزايدة التي تقوم بها جماعات بوكوحرام وغيرها فقد تشكلت ميليشيات مدنية من أجل الدفاع عن المدنيين، وهو ما يعني تحمل المجتمع مهمة الدفاع

عـن نفسـه فـي ظـل حالـة التراجـع والانسـحاب الـذي تعاني منـه الدولـة، وهذا ينطـوي علـى تبعات سـلبية تقوض مسـيرة النهضـة والاندماج الاجتماعـي. ويذكر أن الخسـائر فـي الأرواح بلغـت 36,5653 % منها حدث فـي النصف الأول من عام 2014 وحـده، وأن العـدد لا يتضمـن مـن تفلتـوا مـن الاختطـاف مـن الجهادييـن ومـن مـات من مصـادر أخرى مـن العنـف الديني.

وقـد علـق الرئيـس النيجيـري أنـه وضـع اسـتراتيجية للتعامـل مـع التحـدي الآتي من بوكوحرام في اتجاهين، الأول: تفعيل وكالات الأمن المحلية وتنشـيطها. والثانـي: التعـاون مـع البـلاد ذات الخبـرات الأكثـر فـي محاربـة الإرهـاب، وإن فرنسـا وبريطانيـا والصيـن وإسـرائيل والولايـات المتحـدة كلهـا تقـدم مسـاعدات لنيجيريـا وتبـذل الجهـد لاقتـلاع المتمردين.

لا شــك أن العنــف وحــده ليــس الوسـيلة الفعالــة للتصــدي للإرهــاب، وأن الضربــات بالطائــرات علــى القــرى والمــدن هــي الأداة المفضلــة للنظــام النيجيــري لمواجهــة Sالإرهــاب تكــون مؤثــرة علــى آلاف البشــر والمواطنيــن الآمنيــن المنــدس بينهــم أفــراد مــن الجماعــات الإرهابيــة أو الخاضعيــن لهــا، أنهــا بذلــك تكــون عمليــات إبــادة وليســت مقاومــة لهــذه

الجماعـات، وأن طـرد العناصـر الإرهابيـة إلـى الجبـال بـلا طعـام أو مـاء وإجبـار الرجـال علـى الاختبـاء وأخـذ النسـاء سـبايا لا يضعـف مـن شـأنهم بـل قـد يزيـد مـن التعاطـف معهـم فـي ظـل المجتمـع القبلـي، فالتقاليـد القبليـة لا تقبـل أن يعتـدي علـى أحـد مـن أفرادهـا إنمـا هـي تحاسـبه بنظمهـا إذا أخطـأ وهـذا مـا جعـل هـذه الجماعـات تجـد التعاطـف معهـا ومسـاندتها أحيانًـا سـرًا. وحتـى لو اسـتطاعت الحكومـة القضـاء ظاهريًـا علـى تواجـد هـذه الجماعـات أو الادعـاء بهزيمتهـا فـإن هـذه الجماعـات تفـرز مئـات المقاتليـن الانتحارييـن المحمليـن بالهزيمـة والغطرسـة معًـا لذلـك يتطلـب احتواؤهـم عمـلًا مطـردًا وصبـورًا مـن السياسـات الداخليـة.

وإذا كان العنف والإرهاب هو ما يستنفر الرأي العام العالمي لمحاربته فماذا عـن نظـم غاشـمة عنصريـة دموية يسـكت عنها العالم وعـن جرائمهـا وانتهاكاتها ومـن الـذي يتصـدى لهـا وهي التـي أغلقـت كل منافذ العمل السياسـي السـلمي أمـام معارضيهـا الذيـن حولتهم إلى إرهابيين. وبفرض ما يعلـن عن القوة والعنف فـي اسـتخدام القـوة المسـلحة من جانب هـذه القـوة المعارضة أليسـت تلك رد فعـل لهـا لما سـبقها من عنـف واعتقـالات وانتهاكات قامـت بها النظم الشـرعية. أن جماعات المعارضة المسـلحة هي نتوء أفرزته تشـوهات السـلطة الفاسدة غير

العادلة، إنها تعبير عن فشل الدولة في بناء مجتمع عادل، إنها ردود أفعال ضد الظلم، وأن استفحال الظلم ضد المعارضين السلميين لا يقود إلا إلى انفجار غير محسوب من أجل فرض العدالة. إن الحرب في نيجيريا هي حرب طويلة تتطلب مواجهة فكرية وأيديولوجية لهذا الفكر المتطرف، ومعرفة دوافع وأهداف المنتمين لهذه الجماعة وغيرها من جماعات المعارضة التي أثارت غضب المجتمع الدولي، والصراع لم يعد بين جماعة متطرفة تسعى لفرض فكرها وعقيدتها بالقوة على المجتمع ولكنه أصبح صراعًا للحفاظ على وحدة الدولة وسيادتها في مواجهة فكر يهدد وجودها. فما الذي يجب أن تفعله نيجيريا لتهزم بوكوحرام وغيرها لتخرج من دائرة العنف؟

- أتصور أن الجانب العقيدى هو العمود الفقري لمصدر القوة لبوكوحرام التي تحمل أيديولوجيات متطرفة كما هو الحال بالنسبة لغيرها فى عديد من الجماعات وهم يتوجهون بها إلى الجماهير الإسلامية الغفيرة، ولمواجهتهم فعلى الحكومة أن تنشىء لجان تواجه بها هذا الفكر المتطرف بتغيرات أيديولوجية مقابلة تصدر من أقطاب مفكرين إسلاميين معتدلين يشكلون هذه اللجان.

- وعلى الحكومة أن تستجيب للمطالب المشروعة للجماهير

فثمـة مظالـم عـن أمـور يعانـي منهـا الأفراد الأبريـاء ممـا يجعلهـم يتعاطفون مع بوكوحـرام، ويتعيـن حـل مطالب هـؤلاء والاسـتجابة لها.

- وكذلـك يتعيـن تقييـد وإزالـة مـا يحـدث مـن أجهـزة الأمـن مـن عنـف يتعـارض مـع حقـوق الإنسـان بالنسـبة للأفـراد ويجعـل هـؤلاء يتعاطفـون مـع بوكوحـرام، والواجـب علـى الحكومـة أن توقـف انتهـاكات حقـوق الإنسـان وكل أنـواع اسـتخدام البوليـس وأجهـزة الأمـن للعنـف والاعتقـالات العشـوائية.

- وعليهـا خلـق فـرص عمـل أكثـر ممـا هـو قائـم فـإن البطالـة تبقـى تحديًا كبيـرًا، وفـي شـمال شـرق الإقليـم حيث لا تـزال بوكوحرام نشـيطة بأكثـر مما هي فـي المناطقـة الأخـرى وهـذا يرجـع إلى فشـل الحكومة فـي حل هذه المشـكلة ومـن ثـم فـإن خلـق وظائف للشـباب وإدراجهـم في مجـالات العمل سـيخلصهم مـن تأثيـر بوكوحرام.

- أن المسـاحات الشاسـعة للمنطقـة التـي تتكـون منها نيجيريـا جعلت من الصعـب توافـر معلومـات عن أخطار الميليشـيات التي يسـتخدمها الساسـة، وأن تكاسـل الحكومـة عـن إدراك هـذه القـوى أوجـد لبوكوحـرام فرصـة التوسـع فـي تطرفهـا في الشـمال.

- ومـن الإصلاحـات السياسـية أيضًـا تبنـي الحـوار الوطنـي، أن فتـرة القلاقـل الطويلـة المـدى قـد عمقـت التطـرف الدينـي فـي نيجيريـا. وأن الحـوار الوطنـي والمرونـة فـي إجـراء بعـض التنـازلات يمكـن أن يحـل المشـاكل.

- محاولـة إجـراء تسـوية مع عناصـر بوكوحرام الذين يدينـون العنف وهذه المحاولـة تكـون مـع غيـر المتورطيـن فـي عمليـات إرهابيـة أو انتهـاك حقـوق الإنسـان مـن رجـال بوكوحـرام كـي لا تبـدو الدولـة أنهـا تعفـو عـن المدانيـن، أن التسـوية هـي برنامـج يضعـف الجماعـات المتطرفـة وتشـجع علـى التسـليم والاعتـدال.

- أخيـرًا قـد يكـون من المفيد دراسـة التجربة التركية التي تعبر عن الإسـلام المعتـدل ممـا يمهـد لإنشـاء علاقـات إيجابيـة لهـذا التوجـه الإسـلامي، فالتجربـة التركيـة الحاليـة التـي يقـوم بهـا الرئيـس أردوغـان تختلـف فـي هذا المجـال عن توجهـات الرئيـس أربكان السـابقة التي كانـت تعمل على تكتيل الدول الإسـلامية والحـركات الإسـلامية فـي مواجهـة الغـرب، فأردوغـان علـى خـلاف ذلـك يبحـث عـن نقـط الالتقـاء مـع القـوى الغربيـة والحضـارة الغربيـة ويؤكـد علـى جوانـب الالتقـاء والتعامـل الإيجابـي معهـا وإذا لـم يهتـم أحد بهـذا الاتجاه فـإن الحركات

الإسلامية ستنزع إلى العنف وستزداد انتشارًا وحدة، على نيجيريا أن تلجا إلى سياسة القوة الناعمة وتتخلى عن سياسة القوة الخشنة التي ثبت فشلها.

يجب على الحكومة النيجيرية أن تواجه مشاكلها بصدق وجدية وأن تدرك أنها مسئولة عما وصلت إليه أحوال البلاد من اضطرابات، وألا تلقى على قوى المعارضة أنها ألعوبة في يد القوى الاستعمارية الجديدة، وأن أنشطتهم هي التي أدت إلى إضعاف نظمهم، وأن إلقاء كل ما يحدث من عنف على جماعات المعارضة والادعاء بعولمة التطرف والإرهاب من شأنه أن يحول هذه الجماعات إلى تنظيمات متطرفة وذلك تحت الضغط الدولي والإقليمي وهو ما يزيد الأمر خطورة.

***

الخلاصـــة

نجح الإعلام الغربي في لفت انتباه العالم لقضية العنف والإرهاب في العالم الإسلامي وخاصة في الغرب الأفريقي، ولكن لم يفرد الإعلام أي مساحة للأسباب التي جعلت الشباب في كثير من البلاد الإسلامية تتخلى عن الحياة طواعية لتذهب بفكرها إلى العنف للبحث عن نظام بديل يكفل له الحق في عدالة تنشدها ولم تجدها في مجتمعاتها، لم يلق الإعلام الضوء على فساد الحياة السياسية والاجتماعية في هذه البلدان خاصة في بلد مثل نيجيريا يملك ثروة نفطية هائلة ويعيش أغلب سكانه ما بين الفكر والتهميش والظلم وانتشار الجهل والأمية.

خلاصة الأمر لما تم استعراضه خلال طيات هذه الدراسة حول العنف في الغرب الأفريقي حالتي مالي ونيجيريا في حقيقته، أن هذه الحركات إنما هي ردود أفعال على قدر كبير من التلقائية للعديد من المشاكل والمآسي التي تحيط بكل الشئون الأفريقية الاجتماعية والسياسية والمعاشية والاقتصادية، وهي ردود فعل لمشاكل عميقة الجذور في هذه المجتمعات. هناك الجوع

والفقـر فـي قـارة تزدحـم أراضيهـا بالثـروات الطبيعيـة، وشـعبها " كالعيـر يقتلهـا الظمأ والمـاء فـوق ظهورهـا محمـول" كمـا يقـول الشـاعر العربـي القديـم، وهنـاك تاريـخ الاسـترقاق الـذي خلـف جروحًـا عميقـة فـي النفـس الأفريقيـة ويميـل فئـات منهـا إلى العنـف الـذي هـو بعـض مما لاقى هذا الشـعب في تاريخـه الطويل، وهناك الاسـتعمار الغربـي الـذي لم يكتـف بنهب الثـروات الطبيعية الأفريقية واسـتغلال الأفريقيين شـبه أرقـاء فـي مشـاريعه الاقتصاديـة، ولكنـه عمـل علـى سـحق الشـخصية الأفريقيـة ذات التـراث الثقافـي والحضـارات المتعـددة.

كما أن هناك تشـكيلات جديدة لدول أفريقية ذات حدود رسـمها الاسـتعمار الغربي علـى الأراضـي الأفريقيـة وأدت إلـى تمزيق الوحدات الاجتماعية لسـكان القـارة من حيث القبائـل أو الوحـدات اللغويـة أو الوحدات الخاصة بالجماعات الثقافيـة والعقيدية، وهناك حكومـات اسـتبداد مـن نخـب أفريقيـة أنشـأتها القـوى الاسـتعمارية وربتهـا للتحـول إلـى عمـلاء حضارييـن للسياسـات الغربيـة تمـارس الأسـاليب الغربية علـى الشـعوب الأفريقية ولكن بوجـود أفريقي.

كل ذلـك تجـيء ردود فعلـه بتلـك الحـركات والجماعـات التـي ذكرنـا بعضًـا منهـا فـي هـذه الدراسـة. ويلاحـظ أن القـوى الغربيـة وأدوات الإعـلام الغربـي تصـور هـذه الحـركات بمـا لا يزيـد عـن القسـوة غيـر المبـررة والحمـق غيـر المفسـر إلا باعتبارهـا ظواهـر تخلـف شـعبي وظواهـر فكـر إسـلامي أو فكـر

أفريقـي موصـوم دائمًـا بالتخلـف والقسـوة، وذلـك بغيـر أن يدركـوا أن الفكر الإسـلامي أو أي فكـر أفريقـي أو عقائـد أفريقيـة إنمـا تتولـد منه تيـارات متباينة للعمل السـلمي أو العمـل العنيـف حسـب الظـروف التاريخيـة والاجتماعيـة والسياسـية التـي تمـر بهـا أيـة جماعـة، وأن الفكـر الأوروبـي الحديـث الموصـوف دائمًـا بالتقـدم والإنسـانية والديمقراطيـة هـو نفسـه تولـدت عنـه الحـركات النازيـة والفاشـية وتولـد منـه كل مـا عـرف العالـم وعانـى مـن اسـتعمار ونهـب لثـروات الشـعوب، وقـدم للعالـم عشـرات الملاييـن مـن الذبائـح البشـرية مـن الهنـود الحمـر سـكان أمريـكا الأصلييـن واسـترق الأفريقييـن أنفسـهم مئـات مـن السـنين.

لا شـك أن ثمـة انحرافـات فـي تفكيـر تلـك الجماعـات التـي تكلمنـا عنهـا، ولكننا فـي إدراك جوانـب الانحـراف فيهـا يتعيـن أن نلحـظ الأسـباب الاجتماعيـة والسياسـية التـي أدت إلـى ذلـك، وتراكمـات المظالـم التـي أفرزت هـذه التلقائية الحـادة في ردود الفعـل، وأن نـدرك أننـا إن عاملنـا أناسًـا بقسـوة غيـر إنسـانية فعلينـا أن ننتظـر منهـم ونتوقـع ردود فعـل تلقائيـة مـن نفـس النوع.

كمـا ينبغـي أن يكـون موقفنـا ليـس مجـرد الهجـوم علـى مـا فـي هـذه التكوينـات مـن أخطـاء وسـلبيات، ولكـن أن نفكـر في كيـف يمكـن هدايتها إلى مـا ينفعهـا وينقـي فكرهـا وأهدافهـا السياسـية مـن هـذه السـلبيات.

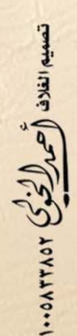
***

فهرس المحتويات

جذور العنف في الغرب الأفريقي

إنها أفريقيا

هذة القارة المظلومة تاريخيا
مزيد من الفقر رغم الثروات الطبيعية
والبشرية
مزيج من اللغات والعادات والثقافات
والصراعات القبلية
التى ولدت العديد من حركات الاحتجاج
المعارضة والمتداخلة والتى يمثل العنف
فيها حجر أساس
فمن المسئول عن العنف؟
وما أطراف الصراع؟
وما أبعادالمؤامرة عليها؟
وما الخلفية الحقيقية لأحداث العنف
فى الغرب الأفريقى؟
كل هذا يعرض له الكتاب فى حالتين
من بدايات جذور العنف فى هذه القارة
السمراء وهما مالى ونيجيريا







دار البشير للثقافة
01012355714 - 01152806533
darelbasheeralla@gmail.com
darelbasheer@hotmail.com
www.darelbasheer.com